4 me Année, No. 147.

Lundi - 27 - 4 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولي رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٤٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٦ صفر سنة ١٣٥٥ — ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــــدد

ترجمة معاني القرآن

رأى صاحب السعادة الأستاذ محمد علي علوبه باشا وزير المعارف في رحلته إلى الشرق الأقصى قوماً من اليابان ينظرون في الأديان ليختاروا من بينها طريقهم إلى الله، وهم لذلك يتلمسون الوسائل لفهم القرآن فلا يجدون إلا ما كتب المستشرقون والمبشرون وأولو العِلاّت من الجهل والغرض. وكل ما في أيديهم من ذلك ترجمتان: ترجمة أوربية لم تصدر عن معرفة، وترجمة (أحمدية) لم تصدر عن عقيدة؛ فالأولى تشوبه من زور العلم، والأخرى تموبه من خداع السياسة. والدعوة الدينية اليوم فضلاً عن آثارها الروحية وسيلة من وسائل الاستعمار في الأمم الضعيفة، ونوع من أنواع التحالف في الأمم القوية

رأى الأستاذ ذلك وسمع أمثال ذلك فكان من أمانيه أن تصدر عن مصر كنانة الله وموطن الأزهر ومعقل العربية، ترجمة رسمية لمعاني القرآن تكون في الترجمات كما كان مصحف عثمان في المصاحف. فلما تولى وزارة المعارف كان من أول ما أمضى النية عليه أن طلب إلى مجلس الوزراء « ترجمة معاني القرآن ترجمة رسمية

بحسب ترتيب سوره وآياته ، وبأسلوب موجز واضح يمكّن المترجم من نقله إلى الألســـنة الأجنبية بالتدقيق الواجب توخيه فى ترجمة رسمية ؛ على أن يبـدأ بترجمة القرآن إلى اللغة الانجليزية بمعرفة لجنة أحد عنصريها جماعة من المستشرقين أو غيرهم من الأجانب ، يراجع عليها كاتبان أحدهما مصرى والآخر انجليزى ، يراجعان الترجمة مراجعة نهائية » . وجعل الغرض لهذه الترجمة : « نشر هداية الاسلام بين الأمم التى لا تتكلم العربية ، والقضاء على الأثر السيئ الذى أحدثته الترجمة الخاطئــة » . فعرض هذا الأمر صاحبُ الدولة رئيس الحكومة على صاحب الفضيلة رئيس الأزهر ، فاستفتى فيه جماعة كبار العلماء فأفتوا بجوازه ، وعلى ذلك أقره مجلس الوزراء وانقطع القول فيه

* * *

ما كان لنا إذن بعـد أن أفتى كبار العلماء وأقر مجلس الوزراء أن نتكلم فيما فرغ الناس منه وتبين الحق فيه ، ولكن « الرسالة » من واجبها أن تلاحظ ومن حقها أن تسجل . والجدل الذى قام على هذا المشروع المفهوم بالضرورة ، بين من أيّد وبين من فند ، إنما دل على مفمزين فى بعض رجال الدين لا يتجدد بهما حبل الاسلام ولا تبلغ عليهما رسالة الأزهر . دل على أن فى العلماء من لا يزالون يعتقدون أن من سـنة الدين إلغاء العقل بإلغاء الرأى . فهم فيما يوردون وفيما يصـدرون عبيد النقل ، لا يفتون إلا بقول قيل ، ولا يحكمون إلا بنص كتب ، وقد لا يكون من الفروق بينهم وبين صاحب هذا القول أو كاتب هذا النص إلا أنه سبقهم إلى الوجود بقرن أو أكثر !

صفّحوا أوراق الأسفار الضخمة لعلهم يقعون على نص فقهى يحظر أو يبيح ترجمة المعانى القرآنية إلى اللغة الانكليزية ، فلما أعياهم المحال بالطبع تقارعوا بالنصوص المحمّالة ، وتراشقوا بالنقول المبهمة ، وفاتهم حين فاتوا الاجتهاد أن دعوة الاسلام عامة ، ومن مقتضيات هذا العموم أن يترجم كتابها إلى كل لغة ، وأن الداعى الأعظم (ص) الذى كان يجيب كل وفد بلحنه ، ويخاطب كل إنسان على قدر عقله ، ويهوّن على الفارسى فيكلمــه ببعض لسانه ، ويسهّل على قارئ القرآن بأن يقرأه بلهجته ، ويوافق سـلمان على ترجمته الفاتحة لقومه ، لو نسأ الله فى أجله حتى تُفتح الفرس وتُغلب الروم لأمر فى أغلب الظن أن ينقل كلام الله إلى كلام الناس ليتصـلوا به من غير حجاب ، ويتفقهوا فيه من غير وساطة

إن فى جعل بعضهم تعلم العربية شرطاً فى فهم القرآن واعتناق الاسلام صداً عن سبيل الله وإبطالاً لدعوته . وإن إغفال الترجمة الاسلامية لآيات الله لم يحمل الفرس والترك والهنود على أن يتعربوا ، وإنمـا ظلوا إلى اليوم يكابدون اختلاق الدعاة وتضليل الجهلة ، وما تعرب منهم من تعرب إلا ابتغاء الرزق أو الجاه أو العلم فى دولة العرب . وعـدم الترجمة فى مصر لم يحل دون وجودها فى غـير مصر ؛ فان الناس فى الشرق والغرب يقرأون القرآن فى أكثر اللغات بأسـلوب مفكك وبيان قاصر ، وواجب العلماء أن يغيروا هذا المنكر بالمحو وهو محال ، أو بالتصحيح وهو ممكن . وليس فى ترجمة معانى التنزيل استحالة ما أمكنت القدرة . والقول بأن المسلمين ما برحوا عاجزين عن فهم القرآن قول بأن الاسـلام يقوم على أساس غير واضح . ولعل ترجمة المفهوم من لفظ القرآن أسلم من ترجمة المراد من معناه ؛ فان الأولى تفسير لغوى للنص ، والثانية تقييد رسمى للرأى . وفى ذلك وشبهه مجال لعقل الفقيه اذا خلص من قيود التقليد لحظة

* * *

كذلك دل هذا الجدل على أن فى العلماء من يلبسون الدين بالهوى ابتغاء لمرض الدنيا أو استشفاء من مرض القلب ، فقد تحدث الناس عن رجلين معروفين بمرونة الرأى قاما يحاربان المشروع بنية مدخولة ، حتى بلغ الأمر بأحدهما أن أهاب بدافعى الضرائب أن يحولوا بين الحكومة وبين الانفاق على هذا العمل الباطل ! !

يا ورثة الأنبياء فيم ورثتموهم ولم يتركوا ضياعا ولا قصورا ولا مراكب ؟ ؟ إنكم ورثتموهم فى الدعوة إلى الله فلا تبطلوها ، وفى تنفيذ الشريعة فلا تعطلوها ، وفى نشر الفضيلة فلا تطووها طى المتاع الكاسد

لقد شعر المصلحون بأن الدين جوهر كل إصلاح ، فساعدوهم على كشف الطريق بنور الحق ، وبلوغ الغاية بهدى الله ، وإلا فليس على الدين مسيطر ، ولا على الناس لله وكيل !

الربيـــــع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

خرجتُ أشهدُ الطبيعةَ كيف تُصبح كالمشوق الجبار ،
يقدِّم لعاشقه إلا أسبابَ حبه !
وكيف تكون كالحبيب ، يزيد فى الجسم حاسةً لمس المعانى الجميلة !
وكنت كالقلبِ المهجور الحزين ، وجد السماء والأرض ، لم يجدفيهما سماءه وأرضه
ألا كم من آلاف السنين وآلافها قد مضت منذ أخرج آدم من الجنة !
ومع ذلك فالتاريخ يعيد نفسه فى القلب ؛ لا يحزن هذا القلب إلا شعر كأنه طُرد من الجنة لساعته

* * *

يقف الشاعر بإزاء جمال الطبيعة فلا يملك إلا أن يتدفّق ويهتز ويطرب
لأن السرّ الذى انبثق هنا فى الأرض ، يريد أن ينبثق هناك فى النفس
والشاعرُ نبي هـذه الديانة الرقيقة التى من شريعتها إصلاحُ الناس بالجمال والخير
وكلُ حُسن يلتمس النظارةَ الحيـةَ التى تراه جميلاً لتعطيه معناه
وبهذا تقف الطبيعة محتفلة أمام الشاعر ، كوقوف المرأة الحسناء أمام المصور

* * *

لاحت لى الأزهارُ كأنها ألفـاظُ حب رقيقة مُنَمّقة باستعارات ومجازات
والنسيمُ حولها كثوب الحسناء على الحسناء ، فيه تعبيرٌ من لا بِسَتِه
وكل زهرة كابتسامة تحتها أسرارٌ وأسرارٌ من معـانى القلبِ المعقـدة

أهى لغةُ الضوء الملوّن من الشمس ذاتِ الألوان السبعة ؟
أم لغةُ الضوء الملوّن من الخد ، والشفة ، والصدر ، والنحر والديباج والحلى ؟

* * *

وماذا يفهم العشاقُ من رموز الطبيعة فى هذه الأزاهرالجميلة ؟
أتشير لهم بالزهر إلى أن عمر اللذة قصير ، كأنها تقول : على مقدار هذا ؟
أتعلمهم أن الفرق بين جميل وجميل كالفرق بين اللون واللون وبين الرائحة والرائحة ؟
أتناجيهم بأن أيام الحب صُوَرُ أيام لا حقائق أيام ؟
أم تقول الطبيعة : إن كل هـذا لأنك أيتها الحشرات لا تنخدعين إلا بكل هذا [1] .... ؟

* * *

فى الربيع تظهر ألوانُ الأرض على الأرض ، وتظهر ألوان النفس على النفس
ويصنع الماءُ صُنعَه فى الطبيعة فتُخرج تهاويلَ النبات ،
ويصنع الدم صنعه فيخرج تهاويلَ الأحلام
ويكون الهواءُ كأنه من شفاءٍ متحابّة يتنفس بعضُها على بعض
ويعود كل شيء يلتمع لأن الحياة كلها ينبض فيها عرقُ النور
ويرجع كل حى يغنى لأن الحب يريد أن يرفع صوته

* * *

وفى الربيع لا يضىء النورُ فى الأعين وحدها ، ولكن فى القلوب أيضاً
ولا ينفذُ الهواءُ إلى الصدورَ فقط ولكن إلى عواطفها كذلك
ويكون للشمس حرارتان إحداهما فى الدم
ويطغَى فيضانُ الجمال كأنما يراد من الربيع تجربةُ منظر من مناظر الجنة فى الأرض
والحيوان الأعجم نفسُه تكون له لفتَاتٌ عقلية فيها إدراكُ فلسفة السرور والمرح

* * *

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما فى ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات إليها كى تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة

وكانت الشمسُ فى الشتاء كأنها صورةٌ معلقة فى السحاب
وكان النهارُ كأنه يضيء بالقمر لا بالشمس
وكان الهواءُ مع المطر كأنه مطرٌ غير سائل
وكانت الحياة تضع فى أشياءَ كثيرة معنى عبوس الجوّ
فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم من السفر

* * *

وينظر الشباب فتظهر له الأرض شابة
ويشعر أنه فى معانى الذات أكثر مما هو فى معانى العالم
وتمتلئ له الدنيا بالأزهار ، ومعانى الأزهار ، ووحى الأزهار
وتخرج له أشعةُ الشمس ربيعاً وأشعةُ قلبه ربيعاً آخر
ولا تنسى الحياةُ عجائزها ، فربيعُهم ضوءُ الشمس . . .

* * *

ما أعجب سر الحياة ! كل شجرة فى الربيع جمال هندسى مستقل
ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياةُ فى جمال هندسى جديد كأنك أصلحتها
ولو لم يبق منها إلا جذر حىّ أسرعت الحياة فجعلت له شكلا من غصون وأوراق
الحياة الحياة . إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائماً هداياها
وإذا آمنت لم تمد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التى أنت بها مؤمن

* * *

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها »
وانظر كيف يخلق فى الطبيعة هذه المعانى التى تبهج كل حى، بالطريقة التى يفهمها كل حى
وانظر كيف يجعل فى الأرض معنى السرور ، وفى الجو معنى السعادة
وانظر إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التى تملأها وتطمئن ؟
انظر انظر ! أليس كل ذلك رداً على اليأس بكلمة : لا

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

الاسلام كعامل فى المدنية

[بقية ما نشر فى العـــدد الماضى]

للأستاذ أحمد أمين

والمسألة الثانية هى « الثقافة الاسلامية » وأثرها فى المدنية

وأريد أن أكرر هنا ما أشرت اليه من أن الثقافة الاسلامية كانت أثراً من آثار العقيدة الاسلامية التى ألممت بها . فالقرآن رفع مستوى العقل الى درجة يستطيع فيها التفكير الصحيح بما حارب من خرافات وأوهام ، وعبادة أصنام ، وبما حث على النظر فى الكون ومراقبة تغيراته ، واختلاف مظاهره ، ودوام حركاته ، وبتوجيه العقل الى أن وراء كل المظاهر المختلفة وحدة ، فالناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم يرجعون الى أصل واحد هو آدم وحواء ، والبحار والأنهار المختلفة كلها ترجع الى ما أنزل من السماء من ماء ، والعالم كله يرجع الى وحدة الخالق « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . فهذه الوحدة فى العالم تحمل على التفكير الصحيح والثقافة العميقة والنظر الفلسفى الروحى . فالقرآن من ناحية فك قيود العقل ، وهذا هو العامل السلبى ؛ ومن ناحية أخرى أخذ بيده ليشرف على العالم من مرقب عال ، وهذا هو العامل الايجابى

من أجل هذا كانت الثقافة الاسلاميـة نتيجة العقيدة الاسلامية لا نتيجة شىء آخر ، فان هى اتجهت الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية ، فلأن الدين حملها على ذلك وطلب منها أن تتطلب العلم حيث كان ومن أى كائن كان

وقد بذر الاسلام فى نفوس أصحابه بذوراً تأصلت فيهم فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليدا صرفاً ، إنما كانوا دائماً يُعملون العقل فيما نقلوا ، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرأوا . فاذا نظرنا الى ما كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم يقفوا موقف التلميذ فحسب ، بل نقدوا وزادوا ووفقوا بين الفلسفة والدين وأمدوا كل شيء أخذوه بروح من عندهم ، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بهـا — حتى هذا المنطق اليونانى الذى دانت له كل الأمم زاد الغزالى فى بعض كتبه فصولاً عن القرآن ؛ وابن تيمية وابن حزم وغيرهما نقدوا منطق اليونان وعدوه منطق شكل لا منطق مادة . وكان

شأنهم فى كل فرع هذا الشأن تقريباً . فدعوى أن المسلمين فى ثقافتهم كانوا حفظة للثقافة اليونانية أكثر منهم مبتكرين لثقافة خاصة دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الاسلامية دراسة وافية

والحق أن فضلهم على المدنية الحديثة كان من الناحيتين جميعاً : من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ولولاهم لضاع كثير منها ، ومن ناحية ما أنشأوا وابتكروا وبثوا من روح فى الثقافات القديمة . وقد بدأ علماء أوروبا يبحثون نواحى تأثير الثقافة الاسلامية فى الثقافة الأوروبية ؛ وكان من آخر ما أظهروا فى هذا الباب كتاب ما خلفه الاسلام Legacy of Islam تناولوا فيه أثر الثقافة الاسلامية فى الجغرافيا والتجارة ، وفى القانون والاجتماع والفن والعمارة وفى الأدب ، وفى التصوف وفى الفلسفة واللاهوت ، وفى العلم والطب ، وفى الهيئة والرياضيات . وهذا البحث وإن كان آخر ما ألفوا فهو أول ما كتشفوا من طريق يشرف على آثار قيمة ضخمة لا تزال تنتظر مكتشفين أبعد مدى ، وأقوى على تحمل مشاق الطريق

ولعلنا لكى نقرب من موضوعنا نسأل هذا السؤال : هل كان العالم يستطيع أن يقف على درجة السلم التى يقف عليها الآن لولم تكن مدنية الاسلام ؟ هل لولم يكن فى الوجود مدنية بغداد ومدنية قرطبة والحروب الصليبية كانت المدنية الحديثة تبلغ ما بلغت الآن ؟ هل كانت النهضة الأوربية الحديثة تحدث فى الزمن الذى حدثت فيه لولم ترتكز على المدنية الاسلامية ؟

هذا سؤال واحد فى أوضاع مختلفة والاجابة عنه يسيرة ، وهى إجابة بالنفى القاطع . ولا يعلم إلا الله كم كانت تتأخر المدنية الحديثة لولم ترتكز على المدنية الاسلامية وتطير من على عاتقها ، فالتتبع لتاريخ المدنيات يرى أنه حلقات يسلم بعضها إلى بعض ، ويستفيد لاحقها بما وصل إليه سابقها . وقد كانت المدنية الاسلامية هى التى فى الذروة قبيل المدنية الحديثة ، ولم يكن يضارع بغداد وقرطبة مدينة أخرى فى العالم فى مدنيتهما وثقافتهما وصناعتهما ، ونظمهما الادارية والحربية . ولتوضيح ذلك ننظر فى أسس المدنية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس بالمدنية الاسلامية

لقد بنيت النهضة الحديثة فى الثقافة على أساسين وهما الشك والتجربة — كانت الثقافة فى القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد على آراء اليونان وتقدس ما قال أفلاطون وأرسطو كل التقديس . فاذا قال أرسطو قولاً فلا يمكن إلا أن يكون صحيحاً ، وإذا كان الحس يدل على غير ما يقول وجب أن نعتبر الحس خداعاً ، والحقيقة ما قال أرسطو . لقد قال أرسطو إن الجسم إذا كان أثقل كان إلى الأرض أسرع ، ولكن صعد بعضهم من مكان عال ورمى فى وقت واحد حديدتين وزن إحداهما ضعف الأخرى فوصلا إلى الأرض معاً ، ومع هذا قالوا إن الحق ما قال أرسطو ، ويجب أن يؤول الواقع وهكذا . وكانوا يعتمدون كل الاعتماد على القياس المنطقى وحده يؤيدون به المذاهب والآراء ، والقياس المنطقى وحده وسيلة عقيمة لأنه يجعلك تسلم بالمقدمات تسليما أعمى وتعنى فيه بالشكل . فجاءت النهضة الحديثة تشك فى هذه المقدمات العامة وتمتحنها وتجرى التجارب عليها ولا تؤمن بشىء حتى تدل التجارب على صحته ، وكان هذا دعامة النهضة الحديثة . والحق أن هذه طريقة لم تكن بعيدة عن المسلمين ولا خفيت عليهم ؛ فالتاريخ يحدثنا أن النظّام ألف فى نقد آراء أرسطو ، وأن تلميذه الجاحظ فى كتابه الحيوان يطلع اطلاعاً واسعاً على أقوال أرسطو ثم لا يمنحها هذا التقديس ؛ بل ينقدها نقداً جريئاً ويقول قد جرّبنا قول أرسطو فلم نجده صحيحاً . ويقول : « إن قوله هذا غريب » ، و « هو قول لا يجيزه العقل » إلى كثير من أمثال ذلك ، وربما فضّل على قوله قولاً آخر قاله عربى جاهلى فى بيت من الشعر ، لأنه أقرب إلى العقل . فهو بهذا قد جعل عقله حكماً على أرسطو ، على حين أن فلاسفة القرون الوسطى فى أوروبا جعلوا أرسطو حكما على العقل ، والبيرونى يحكم عقله فى الرياضيات ، ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند ، ويفضل هذه حيناً وهذه حيناً فى كتابه الآثار الباقية ، وحيناً لا يقبل هذه ولا تلك ويعتمد على عقله الصرف ، ويقف الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » الموقف الذى وقفه بعدُ ديكارت فيقول : « إنه رأى صبيان النصارى ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام ، وأنه لم يقنع بهذا الدين التقليدى التلقينى ، وطلب أن يعلم حقائق الأمور وأن يبنى دينه على يقين ، وقال إنه بدأ بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ، ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته » وقال : « كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ،

فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني » ، وابن خلدون نظر إلى المجتمع الانساني هذا النظر الحر الطليق فاستفاد مما قال أرسطو وغيره ولكنه لم يتقيد به ، ونظر في مجتمعات لم يصل إليها علم أرسطو وهي القبائل العربية والدول الاسلامية ، واستنتج من ذلك كله نظرياته التي كانت ولا تزال محل تقدير علماء الاجتماع والتاريخ من الأوروبيين وإعجابهم

وعلى الجملة فهذه الأسس التي بنيت عليها النهضة الحديثة في أوروبا من تحرير العقل من قيود الأوهام ، ومن عبادة العظماء أمثال أرسطو ، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة ، وبعد الشك فيما اتخذه الأقدمون قضايا مسلمة ، كله كان منبثاً في الثقافة الاسلامية في عصورها الزاهيــة . وكل ما في الأمر أن الذين بنوا على هذه الأسس القيمة هم الأوروبيون لا المسلمون ، وأن من سوء حظ المسلمين أن وضعت في سبيلهم عقبات ليس منشؤها دينهم حالت بينهم وبين أن يتموا ما بدأوا ، وأن يشيدوا فوق ما أسسوا . ولكن من الحق أنا إذا أردنا أن تقوّم بناء لا نكون سطحيين فنقوم ظاهره ، ولا نقوم باطنه ؛ ونقوم أعلاه ، ولا نقوم أساسه

ووجه آخر بجانب هذا ، وهو أن ثقافة المسلمين لم تكن جميعها متجهة اتجاه الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية ؛ فقد كانت لهم مناح في الثقافة خاصة بهم لم يعتمدوا فيها على غيرهم إلا اعتماداً ضعيفاً غير مباشر ؛ فما أنشأوا من علوم لغتهم كالنحو والصرف والبلاغة وأدبهم الذي رقوا به أدب جاهليتهم وساروا به على منهج خاص بهم ، لا على المنهج اليوناني ، ولا على المنهج الفارسي ؛ والعلوم الغزيرة التي أنشأوها حول دينهم من تفسير للقرآن والحديث ، ومن فقه قابلوا به قضاياهم ونظامهم وحياتهم الاجتماعية الخاصة ، وما أسسوا له من « أصول الفقه » الذي لم يجروا فيه على منوال سبق — كل هذه وأمثالها كانت مظهراً من مظاهر الاختراع العقلي للمسلمين ، وكل هذه كانت عوامل في بناء المدنية الاسلامية التي بنيت عليها المدنية الحديثة

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الصلات التي ربطت بين المدنية الاسلامية والمدنية الأوروبية ، وأبان لنا كيف استمدت الثانية من الأولى ، وكشف لنا عن بعض الجداول التي كانت تتسرب من المدن الاسلامية تصب في المدن الأوروبية ، وإن كان بعضها لم يزل مطموراً إلى اليوم ولم يستكشف بعد

فقد اتصل الأوروبيون بالمسلمين في الأندلس اتصالاً وثيقاً ، واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية ، وهي لغة الأدباء والعلماء في القرون الوسطى ، حتى أن كثيرا مما بقي من مؤلفات ابن رشد حفظت الى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد أصلها بالعربية ، وكان من أشهر من قام بهذه الحركة « ريموند » Raymond الذي كان مطراناً لطليطلة من سنة ١١٣٠ — سنة ١١٥٠ ، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية الى اللغة اللاتينية ، فنقلوا من العربية أهم كتب أرسطو وما علقه عليها العرب من شروح ، كما نقلوا أهم كتب الفارابي وابن سينا ، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا منطق أرسطو المترجم من العربية الى اللاتينية يقرأ في باريس بعد ثلاثين سنة من عمل هذه الجمعية . وقد مرت حركة استفادة الأوربيين من الثقافة اليونانية في ثلاثة أدوار ، الدور الأول : نقل الفلسفة اليونانية والكتب العلمية من العربية الى اللاتينية ، والدور الثاني : النقل من اليونانية مباشرة بعد سقوط القسطنطينية . والثالث : نقل الشروح العربية الى اللاتينية

وجاء فردريك الثاني سنة ١٢١٥ ، واتصل بالمسلمين اتصالاً وثيقاً في صقلية وفي الشام في حروبه الصليبية ، واقتبس كثيراً من آرائهم وعاداتهم وعقائدهم ، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان يعجب بفلاسفة المسلمين ، وكان يعرف اللغة العربية ويستطيع أن يقرأ بها الكتب الفلسفية في مصادرها الأصلية . وأنشأ سنة ١٢٢٤ مجمعاً في نابلي لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اللاتينية والعبرية لنشرها في أوربا . وبفضل فردريك ذهب « ميكائيل سكوت » الى طليطلة وترجم شروح ابن رشد على أرسطو ، وقبل ذلك كانت قد نقلت الى اللاتينية جمهرة من كتب ابن سينا واستعملت في باريس حول سنة ١٢٠٠ م

وفي القرن الثالث عشر كانت كل كتب ابن رشد تقريباً قد ترجمت الى اللاتينية ما عدا كتباً قليلة ، منها كتاب تهافت التهافت الذي رد به على تهافت الفلاسفة للغزالي ، فقد ترجمت في القرن الرابع عشر

وكان أهم مركز لتعاليم ابن رشــد في جامعة بولونيا وجامعة

يا Padua فى ايطاليا ومنهما انتشرت هذه الثقافة فى ايطاليا ـمالية الشرقية الى القرن السابع عشر ، واستمرت كتب ، سينا فى الطب سائدة الى ما بعد هذا العصر

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية ـانوا يدرسون على هذه الكتب ، أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، روجر بيكون الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه ـخذ ثقافته العلمية من الأندلس ، ودرس فلسفة ابن رشد ، والقسم الخامس من كتابه فى البصريات Optics مستمد ومساير لكتاب ـن الهيثم فى هذا الموضوع نفسه

وطالما ارتفعت شكوى رجال الدين فى الأندلس من أن المسيحيين يدرسون علم العرب المسلمين ، وعابوا مطران أشبيلية لأنه يدرس فى جد فلسفة الكافرين ، يعنون المسلمين

وعلى كل حال فجملة الأمر فى مدنية المسلمين كما لخصها الأستاذ ـلكى Lecky خير تلخيص إذ قال :

« لم تبدأ النهضة الفكرية فى أوربا إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة الى الجامعات ، وإلا بعد أن حطمت العلوم الاسلامية ، والأفكار اليونانية ، والاستقلال الصناعى ، سلطان الكنيسة »

* * *

هذا هو موقف المسلمين أمس من المدنية ، ولا بد أن نلقى نظرة على موقفهم اليوم من المدنية الحديثة . ومما يؤسف له حقاً أن نقول إن المسلمين لا يشتركون اليوم فى بناء صرح المدنية اشتراكا كبيرا ، لأن حديثهم هو تقليد للمدنية الحديثة ، وقديمهم هو مدنية القرون الوسطى ، فهم فى الصناعات والمخترعات ونظم الحكومات والادارات ، وفى كتبهم التى تؤلف فى العلوم الحديثة من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وما اليهما ، ونظام مدارسهم الحديثة ومحاكمهم وقوانينهم ؛ كل هذا يقلدون فيه المدنية الغربية . وكلما زاد التقليد فيها عدت أقرب الى الكمال ؛ وقديمهم من مثل دراسات علومهم كالنحو والصرف والفلسفة الاسلامية ، ومن مثل قضائهم فى المحاكم الشرعية ، ومن مثل مدارسهم الدينية ، ونحو ذلك ، كلها على نمط مدنية القرون الوسطى . فهم — فى ظاهر الأمر — لا يضعون أحجاراً كبيرة فى بناء المدنية الحديثة ، ولا يلونونها بلون خاص . ولكن هل الذنب فى ذلك ذنب الاسلام والمسلمين ؟ اذا عرضت نفسك لتبنى فمنعك صاحب البناء بالقوة فالذنب ذنب من مَنع لا من مُنع ، وهكذا الشأن فى موقف المسلمين . لقد سبقهم الغربيون باستخدام العلم فى قوة تسلحهم الى أقصى حد يمكن فيه استخدام العلم ، فوجهوا هذه القوى الهائلة الى الشرق ، ولم يكن قد صحا بعدُ من سباته الذى سببه ما فسد من عقيدته ، وما فسد من سياسته ، وما فسد من شؤونه الاجتماعية ، فسلط عليه الغرب كل قوته ، فانتبه مذعورا ؛ ونظر اليه الغرب نظرة استغلال ، فساعده على كل ما يفيد الاستغلال ، ومنعه عن عمل كل شىء يفيد الاستقلال ، فهو اذا أراد أن يتثقف كما يشاء ، أو يرقى شؤونه الاجتماعية كما يشاء ، أو أن يحكم نفسه كما يشاء ، أو أن يرقى أخلاقه كما يشاء ، منعه الغرب من ذلك حرصا على فائدته فى هذا الاستغلال ، والشرق لا يستطيع أن يقاوم إلا بالقوة ، والقوة محرمة عليه . فهل بعد ذلك هو الذى يتحمل تبعة عدم اشتراكه فى البناء

إنى لأرجو أن الزمن ورقى الأفكار السياسية التى تخطو فى هذه الأيام خطوات سريعة تجعل الغربى ينظر الى الشرق نظرة تعاون ، فيدرك أن طريقة الاستغلال ليست أصلح الطرق حتى من الناحية الاقتصادية ، وأن رقى الشرق والسماح له بالبناء يزيد فى صرح المدنية ويرفع بناءها ، ويسرع فى علو شأنها . وكما تبين للناس أن نظام الأقطاع وتسخير الملاك للعبيد لم يكن فى مصلحة الملاك ولا العبيد ، فحطموا هذا النظام من أساسه ، وأسسوه من جديد على تحرير العبيد وتعاون الملوك والمستأجرين ، وأرباب الأموال والعمال ، فكذلك سيكون الشأن مع الحاكمين والمحكومين يتعاونون ولا يتقاتلون ، ويتفاهمون ولا يتنازعون ، ويتحاكمون إلى الرأى والعقل لا إلى القوة والسلاح . وأرجو ألا يكون ذلك بعيداً

على أن من العدل أن نقول إن التبعة فى ذلك كله لا تقع على الغربيين وحدهم ، فان هناك عوامل فى المسلمين أنفسهم جعلتهم فى هذا الموقف الحرج . فهناك علماء جامدون ضيقوا العقل ، وقفوا موقفاً مزريا فى تاريخ المسلمين ، وعاقوا رقيهم وتقدمهم ، فكان كلما حاول الاصلاح محاول ثاروا عليه باسم الدين ، إن أراد إصلاح المحاكم ثاروا عليه ورموه بالمروق ، وإن أراد تنظيم الادارة الحكومية قالوا لا عهد لنا بهذا ، ويجب أن نتتبع آباءنا وإنا على آثارهم مقتدون .

وإن أراد تعليم المرأة قالوا ما بهذا أتى الدين ! وهكذا كانوا حجر عثرة فى سبيل كل مصلح حتى عظم الخطب ، واشتد الكرب ، وأولو الأمر فى المسلمين إذ ذاك لم يكن يهمهم إلا شهواتهم وتجفخهم الكاذبة ، ومظاهرهم الخادعة . أما الاتجاه الصحيح إلى ترقية رعيتهم وتثقيفهم ، وتنوير أذهانهم ، ونشر العدل بينهم فكانوا قلما يأبهون له . فهؤلاء وأولئك كانوا السبب فى أن يقف المسلمون هذا الموقف الذين شكونا منه من قبل

ومع هذا فتنبه المسلمين اليوم ، وسير حركات الاصلاح بينهم سيراً حثيثاً ، يدعونا أن نؤمل قرب اليوم الذى يتبوأون فيه مكانتهم اللائقة بهم . فاذا قارنت هذه النهضة الداخليـة فى رقى الفكر السياسى عند الغربيين ، وتعديل نظرتهم نحو المسلمين كان من وراء ذلك كله نهضة جدية يبنى فيها المسلمون فى المدنية بنـاء صالحاً مصبوغاً بعقيدتهم وأفكارهم ، فنرى إذ ذاك فلسفة خاصة وثقافة خاصة ، وروحانية خاصة ، قد تلون المدنية الحديثة عامة بلون خاص غير لونها الحالى

أحمد أمين

النهضات القومية العامة

فى أوروبا وفى الشرق

للأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

المحاضرة الثانية*

الفاشية :

رأينا فى المحاضرة السابقة كيف قامت الفاشية والنازية سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف . ونقول فى هذه المحـاضرة كلمة عن هاتين الحركتين ؛ وقد كتب الشىء الـكثير عنهما ، ونحن لا نحاول الأحاطة بكل ما كتب ، بل نتوخى الايجـاز الذى يقتضيه هذا المقام

يمكن أن نصف الفاشية بأنها رد فعل عنيف للحركة الاشـتراكية التى قامت فى إيطاليا عقب الحرب الـكبرى ، وهددت مرافق الحياة فى هـذه البلاد بالشلل والنضوب ، حتى أصبحت إيطاليا فى حالة لا تحسد عليها ، وحتى كادت وحدتهـا الوطنية تتفكك . فقام مؤسس الفاشية ، وكان اشـتراكياً فى مبدإ أمره ، فوفق بين مبدئه الاشـتراكى ونزعته الوطنية ، وأسس الحـكم الفاشى قائماً على فكرة الوطنية ، معارضاً لفكرة الطبقات . وهكذا انتكست الاشـتراكية فى ايطاليا ، ورجح مبدأ الوطنية للانتصار

فالفاشية ، كنظام من نظم الحـكم ، ليست إلا مقاومة عنيفة للبلشفية . وهى ليست مقصورة على ايطاليا ، بل امتدت منها الى غيرها من البلاد ؛ فهى تسمى فى ايطاليا بالفاشية أو الموسولينية ، وتسمى فى ألمـانيا بالنازية أو الهتلرية ، وتسمى فى تركيا بالـكمالية وهكذا . وهى ، أين تسود ، تقف سداً منيعاً دون تفشى البلشفية .

ولمـا كانت الفاشية قد نشأت فى أول أمرها وترعرعت فى ايطاليا ، فنحن نبدأ بالفاشية الايطالية ، لننظر كيف نشأت ، ثم نستعرض المبادىء التى قامت عليها ، والوسائل التى تذرعت بها فى العمل ، والطرق التى اتبعتها فى التنظيم

نشأتها :

أما كيف نشأت الفاشية فى ايطاليا ، فلأجل أن نعرف ذلك يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، لنســتعرض ايطاليا فى مبدإ الحرب الـكبرى ، وهى مترددة هل تدخل الحرب الى جانب ألمـانيا أو الى جانب الحلفاء . ثم تدخل الى جانب الحلفاء ، فتكاد تكتسحها الدول الوسطى ، وتعانى من أهوال الحرب ورزاياها ما يكاد ينوء بهـا . ثم يبسم الحظ للحلفاء ، فينتصرون وتنتصر معهم ايطاليا . ولـكنها تخرج من الحرب فى حالة من الفوضى الاقتصادية والاضطراب المـادى ، هى شر من الحرب . فالبلشفية قد تفشت فيها ، والعمال أخذوا يثيرون القلاقل والفتن ، والشعب ساخط غاضب على حكومته ، يتهمها بالضعف والعجز ، فهى لم تنل فى مؤتمر فرسايل من الأسلاب والغنائم ما يتفق مع الجهود والتضحيات التى اعتقدت ايطاليا أنها بذلتها أثناء الحرب ، ولا ما يتفق بنوع خاص مع طموح ايطاليا الفتاة ومطامعهـا الاستعمارية . فاذا أضفنا الى هذا كله أن النظم الدستورية والنيابية لم تكن قد تأصلت فى الحـكومة الايطالية ، وأن روح الديمقراطية لم تكن قد اسـتقرت فى الشعب الايطالى فى المدة القصيرة التى

* ألقيت فى بهو أمانة العاصمة ببغداد يوم ٨ أبريل سنة ١٩٣٦

ت عليه منذ استقلاله ، وأن هـذه البلاد لم تنس بعدُ عهد الجمعيات السرية ولا المؤامرات التى تدبر فى الخفاء ، واذا عـدنا بالاشـارة مرة أخرى الى ما انتشر من الفوضى والاضطراب فى البلاد بسبب تفشى البلشفية ، نستطيع بعد كل ذلك أن نتصور أن رجلاً جريئاً مغامراً ، ذا إرادة صلبـة ، وعزيمة قوية ، وطموح بعيد ، يقود طائفة من الفتيان تدفعهم حماسة الشباب ، وحمية الوطنية ، وأحلام المجد والعظمة ، والأيمان العميق بمستقبل الوطن ؛ نستطيع أن نتصور ، لو أن رجلاً بهذا الوصف ، ومن ورائه الشـباب المتوقد عزيمة وقوة ، برز الى الميدان ، وتقدم الى شعب من الشـعوب ، لينقذه من حالة الفوضى والاضطراب ، ويعيد إليه مجده القديم ، ويسـوقه إلى ساحات العظمة والمجد ، فينال حظه من كل ذلك ، بعد أن أنكره عليه حلفاؤه بالأمس ، فان هذا الرجـل لابد أن يقابل بالترحيب ، ثم بالاعجاب ، ثم بالتحمس . وأنه لا بد واجد من هذا الشعب جنوداً يبذلون نفوسهم فى سبيل تحقيق هذه الغايات الوطنية الشريفة . وقد كان الشعب ، وكان الرجل . أما الشعب فهذه الأمة الايطالية الشابة الفتية ، الحساسـة المسرفة فى الحساسية ؛ وأما الرجـل فهو موسولينى ، بطل الفاشية وزعيمها الأكبر

وقد بدأت الفاشية ، بعد زحف موسولينى على روما وقبضه على ناصية الحكم بالقوة ، حكماً تجريبياً ، ليست له خطة مرسومة ولا مذهب مقرر . وكان موسولينى فى مبدإ أمره اشـتراكياً متحمساً ، ثم انقلب جندياً باسلاً ، ورجع وطنياً غيوراً . وصار من اعتنق الاشتراكية وآمن بمبادئهـا ، نقمة الاشـتراكية وخصمها الألد . وتقدم موسولينى الى الحكم وليست له خطة مرسومـة كما قدمنا ، إلا اذا كانت الرغبة الملحة فى الاصـلاح وإعادة مجد الوطن يصح أن تسمى خطة . فالفاشية بدأت تجريبية شعارها العمل ، والعمل الايجابى المنيف فى سبيل الاصـلاح الوطنى . لذلك اشتهرت الفاشـية بصبغتها العملية ، وباقدام رجالها ، واقتحامهم أشد الأخطار هولاً ، دون تردد ولا هوادة . فالقضية عندهم هى بعث الأمة الايطالية من جديد . أما المبادىء والنظريات فقد كان موسولينى يسخر منها ، ويرى أنها سـلاح خطر ، قد يرتد الى صاحبه فيرديه . فالبلشفية قد بدأت إذن عملاً لا مبـدأ ، وحركة لا فـكرة . ولم يكن لديه منهج مرسوم يريد تحقيقه . ويوم ارتقى موسولينى منصة الحكم لم يكن لديه الا ارادة وعزيمة ، فأكب على العمل بهذه الارادة وهذه العزيمة ، واضعاً نصب عينيه مجد الأمة الايطالية وعظمتها

ثم أخذت الفاشية تمر بمراحل متعاقبة من التجارب العملية زهاء عشر سـنوات . تهذبها الأحداث ، وتنضجها الأيام . وتطورها مقتضيات الضرورة ، حتى استنار طريقهـا ووضحت معـالمه . وارتسمت الفاشـية مبادىء ينتظمها مذهب معروف مقرر . وصارت نظاماً عالمياً له نظرياته وقواعده . وعبرت مبادئها من بلد الى بلد . ودخلت فى دور علمى فلسـفى ، تقرر نظرية للدولة ، ونظرية لعلاقة الفرد بالمجموع ، ونظرية لأثر العوامل الاقتصادية فى الحالة السياسية ، ونظرية لعلاقة المسائل الروحية بالمسائل المـادية ، ونظرية للتربيـة والتعليم . ولـكن الفاشية بقيت محتفظة بصبغتها العملية الأولى ، فهى تبدأ بالوقائع تبحثها وتحللها ، ثم تصوغها بعد ذلك نظريات سياسية واقتصادية ، بخلاف البلشفية فانها تبدأ ببسط النظريات ، ثم تطبقها بعد ذلك على الوقائع

ولننظر إلى الفاشية كمبدأ علمى فلسفى ، وكنظام عملى من نظم الحـكم القائمة . فالفاشية بهـذا الوصف لها مبادىء تقوم عليها ، ووسائل للعمل ، وطرق للتنظيم

مبادئها :

أما المبادىء التى تقوم عليها فتتلخص فى عبارة واحدة هى « مجد الوطن وعظمته » . فالفاشية حركة تقوم على القومية ، وتعادى كل نزعة من شأنها أن تكسر حدة الوطنية . أما الجامعات الدولية كالبلشفية فتحاول أن تحقق اتحاد العمال فى جميع أنحاء العالم ، وكعصبة الأمم تحاول أن تدمج القوميات فى جامعة واحدة ، فالفاشية تعادى بعضها ، وتنظر إلى البعض الآخر نظرة المرتاب ، فالوطن ، والوطن وحده ، هو الذى تخصص له الفاشية جهودها

فهى حركة وطنية تقوم فى وجه البلشفية ؛ أى أن الرابطة التى تقوم على فـكرة الوطن لا تزال تجاهد فى أوروبا جهاد المستميت ، وهى فى كفاح عنيف مع الرابطة التى تقوم على فـكرة الطبقات

وسائلها فى العمل :

وللفاشية وسائل للعمل . وتتلخص هـذه الوسائل فى قيام أقلية صالحة باعباء الحـكم . فهناك هيئتان : الهيئة الحاكمة ،

والهيئة المحكومة . ويجب أن تتضامن هاتان الهيئتان تضامن أعضاء الجسم الواحد . أما المساواة الديمقراطية فلا تعترف بها الفاشية . إذ الناس فى الواقع من الأمر غير متساوين ، وهم يتفاوتون فى القوة والكفاية والصلاحية ، ولا عبرة بالمساواة النظرية ما دامت المساواة الفعلية غير متحققة . وقد رفع الله الناس درجات بعضهم فوق بعض ، فيجب الاعتراف بهذه الحقيقة والأذعان لها . وتستخلص الفاشية من ذلك أن فى الأمة أقلية صالحة للحكم ؛ ومعيار الصلاحية الكفاية وتغليب المصلحة العامة والقدرة على تحقيقها . وهذه الأقلية هى التى يجب أن تحكم . وهى لا تستمد سلطانها من انتخاب الهيئة المحكومة لها ، ولا من ثقة هذه الهيئة بها ، بل تستمده من كفايتها وقدرتها على القيام بأعباء الحكم . وترتب الفاشية نتيجة خطيرة على ما تقدم ، فهى تبيح الثورة على الحكومة العاجزة ، إذ المبرر لبقاء الحكومة فى الحكم إنما هو كفايتها ، فاذا انعدمت هذه الكفاية ، انعدم حقها فى البقاء ؛ فاذا بقيت بالرغم من ذلك ، وجب الانتقاض عليها ، ونزعها من كراسيها . وقد طبقت الفاشية هذا المبدأ عملياً ، قبل أن يتقرر مبدأ نظرياً ، عندما زحفت على روما ، وقبضت على ناصية الحكم بالقوة

على أن هذه الأقلية الحاكمة التى تتميز بالكفاية ، تتدرج هى الأخرى فى السلطان حسب درجة كفايتها . فالكفاية هى الكرسى الذى يتركز عليه الحكم . وتعلو طبقة فوق طبقة . وتخضع الطبقة الدنيا للطبقة العليا ، حتى ينتهى الأمر كله إلى زعيم واحد ، تلقى فى يده أزمة الحكم ، وترجع إليه كل الأمور ، فيفرض ارادته على أفراد الهيئة الحاكمة ، كما تفرض الهيئة الحاكمة إرادتها على أفراد الهيئة المحكومة . وبذلك يقوم ركن الدولة على أسس متينة ، وترجع الأمور كلها إلى رأى واحد ثابت لا يضطرب ، ويتوطد سلطان يخضع له الجميع ويذعنون لارادته . فالفاشية ، كما قال بعض الكتاب ، تبدأ بتغليب الجماعة على الفرد ، ولكن الجماعة تندمج فى الأمة ، والأمة تندمج فى الدولة ، والدولة تندمج فى الحكومة ، والحكومة تندمج فى الزعيم

ومن هنا ندرك أن الفاشية هى من أشد ضروب الدكتاتوريات تركيزاً للسلطة ، وأبعدها عن النظام الديمقراطى ، فالديمقراطية تقوم على سلطان الأمة ، وعلى الحرية والمساواة ما بين الأفراد . أما الفاشية فتنكر سلطان الأمة ، وتقيد من الحرية ، ولا تعترف بالمساواة ما بين الأفراد . ولا يعبأ موسولينى ، وهو قابض على ناصية الحكم ، أوثق به الشعب الايطالى أم لم يثق ، فهو لا يستند إلى هذه الثقة ، ولا يستمد سلطانه من سلطان الأمة ، وإنما يستمده من كفايته للحكم وقدرته على تحقيق المصلحة العامة ، وسواء عليه لو أن الاثنى عشر مليوناً من الناخبين أعطوه أصواتهم أم لم يعطوه شيئاً . وقد صرح السكرتير العام للحزب الفاشى بهذه الحقيقة فى عبارة جارحة ، إذ يقول : « لو أن الاثنى عشر مليوناً الذين قالوا نعم تحولوا إلى أربعة وعشرين مليوناً قالوا لا ، لما غير هذا من الأمر شيئاً ، ولبقى موسولينى فى قصر ڤينيسيا ، ولبقيت ثورة القمصان سائرة فى طريقها . . . ولو قدر أن يصوت أربعة وعشرون مليوناً ضد الفاشية ، لكان هذا معناه أن جمهور الناخبين قد أصيبوا بالجنون ، وأن البلاد الايطالية قد أصبحت مستشفى لهؤلاء المجانين ، ولكان هذا سبباً أدعى لأن يبقى العقلاء فى أماكنهم »

وتختلف الديمقراطية عن الفاشية أيضاً فى أنها تركز السلطان فى الأمة ، وتقيم الدولة على سلطان الأمة ؛ فالأمة هى التى تنشىء الدولة . أما الفاشية فتذهب الى العكس من ذلك . وعندها أن الدولة هى التى تنشىء الأمة ، وأن الأمة ليس لها أى سلطان ، بل ليس لها وجود قانونى ، والسلطان كله للدولة . وقد كتب موسولينى فى هذا المعنى فى دائرة المعارف الكبرى الايطالية التى أمر بوضعها ، يقول : « ليست الأمة هى التى تخلق الدولة ، بل الدولة هى التى تخلق الأمة ، وتعطى للشعب الذى يشعر بوحدته الأدبية ، ارادة فوجوداً قانونياً » . وتقضى المادة الأولى من دستور العمل الفاشى بأن الأمة ، وهى وحدة أدبية وسياسية واقتصادية ، تتحقق فى الدولة

فالفاشية تقوم إذن على تقديس السلطة ، وعبادة الدولة ، أى الهيئة الحاكمة وشعارها فى الحكم : العمل الايجابى . فهى لا تقنع للدولة بموقف سلبى ، يقر الأمور دون أن يسيرها ، بل يجب على الهيئة الحاكمة أن تدفع الأمور دفعاً إيجابياً عنيفاً ، فى غير رفق ولا هوادة . وهنا تظهر نزعة الشباب والفتوة التى تميز الحركة الفاشية ، فقد كان أكثر القائمين بها شباناً عندهم طموح وهمة ، وفيهم اندفاع وتوثب

صور من القرن الثامن عشر

٣ـ جاكومو كازانوفا

جوّاب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هبط كازانوفا لندن يبحث وراء طالعه، ويلتمس الوسائل لخوض مغامرات ومشاريع جديدة، ولكنه ما لبث أن شعر بأن المجتمع الانكليزى الرصين لا يغزى بسهولة، وأن الأفق لا يتسع لمزاعمه المريبة، وأن محاولاته الغرامية تلقى مهادا صلبة؛ وشعر بالأخص بأن تلك الخلال والمؤثرات السحرية التى اجتذبت اليه من قبل عشرات الحسان لم يبق لها قوة فى التأثير والاغراء. وهو يشير فى مذكراته إلى ذلك الفشل فى حزن ومرارة: «لقد سجلت هذا التاريخ — سبتمبر سنة ١٧٦٣ — باعتباره لعنة من لعنات حياتى، ولقد شعرت من بعده بأن تيار الكهولة يحملنى مع أننى كنت فى الثامنة والثلاثين». وهكذا اضطر كازانوفا بعد بضعة أشهر ارتكب خلالها كالعادة عدة محاولات وأعمال مريبة، أن يغادر لندن مثقلا بأعباء الخيبة والفشل

وأم كازانوفا برلين، واستطاع أن يقابل ملك بروسيا — فردريك الأكبر — ولكنه استقبله ببرود وتحفظ، ولم يظفر منه بطائل

عندئذ قصد إلى روسيا حيث تروج سوق المغامرة، وهنالك تعرف بالأمير كارل فون كورلاند، وهو أمير مرح فاسد السيرة ينغمس فى مجالى اللهو والخلاعة، ويلتمس اكتساب المال بأى الوسائل، فتفاهما وتوثقت بينهما عرى الصداقة، واستطاع كازانوفا أن يجوز بواسطته إلى المجتمعات الرفيعة فى ريغا وبطرسبرج وموسكو، وأن يستفيد فيها شطراً من حياة السرور والبهجة. ثم ذهب إلى بولونيا، وهنالك فى وارسو خاض نفس الغمار المرحة المريبة معاً، ولفت اليه أنظار البلاط والسلطات بمشاريعه فى عالم النساء والمقامرة، ومزاعمه فى التأثير والشعوذة، واضطر غير بعيد إلى مغادرة وارسو؛ فتركها إلى ڤينا، ولكنه لم يستطع مكثاً بها، لأن عين الشرطة كانت ترقبه؛ فذهب الى باريس كرة أخرى، ولكن العاصمة الفرنسية كانت تعرفه حق المعرفة، وترغب عن قبوله وإيوائه؛ فغادرها إلى اسبانيا، فلقى فيها نفس الرفض والمطاردة؛ وكان صيته المشين قد غمر يومئذ جميع العواصم الأوربية، فلم يبق أمامه سوى الرجوع إلى ايطاليا

فعاد اليها يتجول فيها من مدينة إلى مدينة، والنحس يسايره أينما حل، والفاقة تفت فى عزمه وفى آماله وأمانيه، وشبح الجوع يزعجه، ونذير الكهولة يروعه؛ لقد كان يومئذ فوق الأربعين، وقد خمدت جذوة اضطرامه، ولم يبق من ذلك الفتى المرح، والمغامر الجرئ، سوى طلل متهدم؛ يقول لنا كازانوفا فى مذكراته مشيرا إلى ذلك العهد: «لقد فكرت يومئذ، وربما لأول مرة فى حياتى، فى أيامى الخالية، ورثيت مسلكى، ولعنت الخمسين التى شارفت بلوغها، والتى قضت على جميع أحلامى، وحز فى نفسى ألا أرى أمامى سوى بؤس الشيخوخة، والعطلة والفاقة، وألا تغذينى سوى شهرة مريبة، وحسرات عقيمة». أجل كان كازانوفا يومئذ كهلا، تغلق فى وجهه جميع الأبواب وترغب عنه النساء! وكان أشد ما يحز فى نفسه المكلومة أن يرى تلك المخلوقات الساحرة التى اعتاد أن يجذبها بروائه وسحره وذلاقته، تفر من كهولته الى أحضان الشباب النضر!

ولما بلغ به اليأس مبلغه فكر فى العودة الى البندقية وطنه ومسقط رأسه؛ فسعى فى استصدار العفو اللازم. ولم يدخر

والفناء فى الدولة والوطن هو الظاهرة البارزة فى الفاشية. ولهذا الفناء مظهران: مظهر سياسى يتمثل وطنية، ومظهر اقتصادى يتمثل تعاوناً. أما الوطنية فتتركز فى تربية الفرد تربية فاشية، أى تربية وطنية؛ وتغرس فى الطفل حب الوطن، حتى ينشأ على ذلك، موفقاً ما بين الحرية والنظام، فهو حر ليستكمل شخصيته، وهو خاضع لنظام يكفل التضامن. أما التعاون فيقوم على تنظيم اقتصادى دقيق، أساسه النقابات، فالنقابات فى إيطاليا الفاشية منتشرة انتشاراً واسع النطاق، وسنعود إلى ذلك بعد قليل

(البقية فى العدد القادم) عبد الرازق أحمد السنهورى

وسعاً فى التقرب إلى السلطات والتضرع اليها ، وعاونه على ذلك رسالة كتبها رداً على تاريخ للبندقية ظهر من قبل بالفرنسية بقلم « ا ملو دى لاهوسى » وفيه مطاعن شديدة ضد الجمهورية ونظمها ، وهى مطاعن يفندها كازانوفا فى رسالته بحماسة ؛ وكان لرسالته وقع حسن لدى السلطات ، فاستمعت أخيرا لتضرعه ومنحته جوازا أميناً بالعودة إلى وطنه فى أوائل سبتمبر سنة ٧٧٤

* * *

ولكنه عاد شيخاً يجرجر أذيال البؤس والخيبة ، ويلفظه المجتمع الرفيع ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين قد توفى ، ولم يبق له عون ولا عضد ، فلبث مدى حين يعانى مضض الفاقة ؛ وبعد جهد جهيد عطفت عليه محكمة التحقيق وعينته مخبرا سرياً بمكافآت تتناسب مع عمله وتقاريره ، ثم منحته مرتباً شهرياً قدره خمس عشرة دوقة ، فاطمأن نوعا إلى هذا المركز المتواضع ، واستطاع أن يغشى بعض الحفلات والمسارح ، وكان لا يزال يثير حوله بعض العطف بذكائه وظرفه ، وتعرف عندئذ بامرأة تدعى فرنشيسكا بوشينى ، وعاش معها فى نوع من الهدوء والاستقرار

بيد أنه كان يلعن تلك الحرفة الوضيعة التى ألجئ إلى احترافها ؛ أجل لقد كان كازانوفا جاسوسا زرياً لمحكمة التحقيق التى يمقتها من صميم قلبه ، وكان بحكم عمله مكلفا بالتحرى عن المسائل السياسية والجرائم الأخلاقية والدينية ، التى طالما أمعن فى ارتكابها ؛ وكانت تغمر البندقية يومئذ موجة من الالحاد والانحلال الخلق ، فكان من سخرية القدر أن يسهر كازانوفا على مراقبة الفساق والملحدين ؛ وكان يمضى تقاريره بامضاء مستعار وهو مع ذلك يضطرم سخطاً لذلك الدرك الأسفل الذى هبط اليه . وفى أواخر سنة ١٧٨١ رأت محكمة التحقيق أن تستغنى عن خدماته وقطعت مرتبه ، فتولاه يأس قاتل ، ورأى شبح الجوع ماثلا أمامه ، ورفع يومئذ إلى محكمة التحقيق ذلك الالتماس المؤثر الذى يدل على ذلاقته وحسن بيانه :

« إلى حضرات العظماء الأجلاء سادتى القضاة المحققين :

« أتقدم اليكم ، أنا جاكومو كازانوفا ، وقد غمرتنى الحيرة ، وسحقنى البؤس والندم ، معترفاً بأننى لست أهلا على الاطلاق لأن أرفع اليكم التماسى المتواضع ، أتقدم جاثياً بطلب الرأفة من الدولة ، وأسألها أن تنحنى بطريق العطف والجود ، مالا تستطيع بعد التأمل أن تأباه على بطريق الانصاف

وانى لأضرع الى الجود العالى أن يقوم بمونى حتى أستطيع الحياة ، وأستطيع فى المستقبل أن أقوم بالخدمات التى درجت عليها

وان حكمتكم لتأنس فى هذا التضرع الجليل صادق اهبتى ونياتى »

ولكن محكمة التحقيق لم تصغ الى تضرعه ؛ فزاد يأساً وبؤساً ، وعول على الرحيل معتصما بما بقى له من جلد وعزم ، فسافر الى فينا ووصلها فى يناير سنة ١٧٨٣ فى حال مؤلمة من الاعياء والفاقة ؛ ولبث يتجول حيناً فى فينا وباريس وهولندة فى ظروف نكدة مثيرة ؛ ومع ذلك فانا نراه أحياناً يحلم بمشاريع مدهشة فيفكر وهو فى باريس فى شق قنال أو اصدار جريدة ؛ بيد أنها كانت أحلام يائس مخرف ؛ وأخيراً استقر به المطاف فى فينا . وهنالك تعرف بسفير البندقية السنيور فوسكارينى فعطف عليه وعينه سكرتيراً له ؛ واستعاد الطريد البائس شيئاً من بهجة الحياة ، واتصل مدى حين بالمجتمع الرفيع ، وظهر فى المآدب والمراقص ؛ ولكن فوسكارينى لم يلبث أن توفى ، فتولاه اليأس القاتل مرة أخرى

وأقام مدى حين فى تبلتز فى شرحال حتى ساقته المقادير إلى التعرف بالكونت فون فالدشتاين ، فتأثر لفقره ويأسه ، وأعجب بذكائه وخلاله فعينه أميناً لمكتبة قصره فى « دوكس » من أعمال بوهميا بمرتب حسن ؛ وكانت الكونت فتى طروباً طيب القلب يعشق حياة اللهو والخلاعة ويجوب أنحاء أوربا فى طلب المسرة والمتاع ؛ وكانت خلاله مزيجاً من الشجاعة والضعف ، والكبرياء والخجل ، والبذخ والجود ، فأغدق عطفه على المحب الشيخ الذى خاض غمار حياة باهرة مؤثرة وألقى نفسه بعد طول التجوال فريسة البؤس واليأس

* * *

وكان قصر دوكس مقاماً بديعاً فخماً ينبئ بما لآله من النبل التالد والغنى الباذخ ، وكانت مكتبته الشاسعة المنيرة تضم أربعين

ألف مجلد فخم فى مختلف العلوم والفنون ؛ فكان ذلك المقام النائى الذى يجد فيه المفكر الفيلسوف ضالتـه ، هو المستقر والمثوى الأخير لذلك الذى ضاق به وطنه ، وضاقت به عواصم أوروبا

ولـكن كازانوفا لم يلق الهدوء الذى ينشد ؛ ذلك أنه أثار سخط الحشم والخدم بكبريائه وصلفه وجفائه ، فكانوا يعكرون صـفاءه بخبثهم ودسهم ، وكانت نفسه تفيض مرارة من ذلك الصراع الوضيع الذى يجعله مع الخدم على قدم واحدة . وكان كلما شـكا أمره الى الـكونت أجابه بابتسامة رقيقة ، فاذا شـكا الى الـكونتة والدته هدأت روعه وصرفته بأطيب الوعود

وكان يخفف من وقع ذلك الجدل النكد على نفسه ما كان يغمره به الـكونت من العطف ؛ ذلك أنه كان حين مقامه بالقصر يدعوه دائماً الى مائدته ، والى مختلف الحفلات والمآدب . وعندئذ يستطيع كازانوفا أن يمتع نفسه بقسط من الترف الناعم ، ويبدى ما كمن من خلاله ومواهبه الساحرة ، ويشعر بشىء من السعادة والغبطة

وكان الدرس أشد ما يؤنسه ويملأ فراغه . ذلك أن كازانوفا كان مفكراً واسع الاطلاع ، وكان يعشق القراءة والدرس ، ولـكن تجواله المتواصل كان يحول دون أمنيته ؛ فلما استقر فى هذا المثوى الهادئ الحافل بصنوف الآثار المتعة ، ألفى فرصته ، وانكب على القراءة يترع من مناهلها ؛ ويدون ما عن له من زبدها . ومنذ سنة ١٧٨٦ يتحفنا كازانوفا بطائفة من الـكتب والرسائل المتعة منها . « مناجاة مفكر » Soliloque d;un penseur (سنة ١٧٨٦) ، و « قصة ادوار والزابيث » Hist. A'Eoouard et Elizebeth (سنة ١٧٨٨) ، وهى مزيج غريب من الفلسفة والمغامرة والدين والتهكم . وفى سنة ١٧٨٨ ، أخرج كازانوفا كتاباً ممتعاً عن سجنه وفراره الشهير عنوانه « قصة فرارى من سجون جمهورية البندقية المسماة بالرصاص » L'Hist. de ma Fuite des Prisons deala République de Veniae ete ؛ وفى سنة ١٧٩٠ نشر رسالتين فى مسائل رياضية ؛ وفى سنة ١٨٩٧ نشر رسالة فلسفية أخلاقية عنوانها « خطاب الى ليونار سنتلاج » Lettre à Léonard Snetlage ، هذا الى رسائل أخرى ما زالت مخطوطة محفوظة الى يومنا فى مكتبة « دوكس » الشهيرة

بيد أن أعظم أثر شغل فراغ كازانوفا ، وخلد اسمه فيما بعد ، هو مذكراته الشهيرة التى بدأ كتابتها منذ سنة ١٧٩١ ، والتى نرجئ الـكلام عليها الى الفصل القادم

وكان مما يعتز به أيضاً ويؤنس أعوامه الأخيرة اشتغاله بمكاتبة بعض العظماء الذين عرفهم مثل الـكونت دى لانبرج ، والأمير دى لينى ، والأميرة كلارى ، والأمير بيلوزولسكى سـفير روسيا فى درسدن ، والـكونت كينج ، والأميرة لوبكوفتز ، والأب ديلا لينا ، وغيرهم ؛ وكذلك بعض صـديقاته الذين عرفهم فى أواخر حياته مثل فرنشيسكا بوشينى آخر صاحباته فى البندقية ، وسسليا روجندورف ، والبزافون در ريكى وغيرهن ؛ وكان يزور مكتبة « دوكس » كثير من العظماء والـكبراء من كل فج ، فيسر بلقائهم ومحادثتهم ؛ وكان كازانوفا يثير بذكائه ووفرة عرفانه حوله كثيراً من الاعجاب والعطف ؛ وقد أعجب به كثير من كبراء عصره ، وقدروا مواهبه وتنوع معارفه وطرافة تفكيره ، وبثوه اعجابهم وتقديرهم شفاهاً وكتابة ؛ وكان ذلك يغمره سعادة وغبطة ورضى

بل لقد كان كازانوفا فى تلك الأعوام الأخيرة الهادئة من حياته الحافلة ، يتصور حول نفسه أفقاً من العظمة والشهرة ؛ وكان أيام تجواله قد زار الفيلسوف الأكبر فولتـير فى قصره ومستقره النعزل فى فرنى ، وأعجب بحياته الهادئة وشـيخوخته الجليلة ، فكان يتصور نفسه فى أيامه الأخيرة ، فى نفس الأفق والظروف التى شهد فيها فولتير ، فتغريه تلك المقارنة الخلابة ، وتثير فى نفسه الهائمة طائفة من الأحلام اللذيذة الرائعة

وفى أوائل سنة ١٧٩٨ مرض كازانوفا وتفاقم مرضه بسرعة وشعر باقتراب أجله ؛ فتوالت عليه زيارات الأصدقاء والمحبين يغمرونه بعطفهم وعنايتهم ويرسلون إليه الأطباء والهدايا ؛ وفى الرابع من يونية قضى نحبه واختتم حياته العجيبة فى جو من العطف الذى طالما حرم منه أيام حياته ؛ ودفن على الأغلب فى مقبرة قصر « دوكس » ؛ بيد أن قبره لبث مجهولاً لم يكشف عنه البحث

(الخاتمة تأتى) محمد عبد الله عنان

ليـــلة وداع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

قال لي صاحب : « أين تقضي سهرتنا الليلة ؟ »

قلت : « سهرتنا ؟ ؟ فهل كتب علينا أن نسهر الليلة ؟ »

فقال برقة ابليسية الاغراء : « انه آخر أيام المعرض ، أفلا يحسن أن نودع مدينة الملاهي ؟ »

فقلت : « من ذا تودع فيها يا شيخ ، وقد ودعت شبابك ؟ »

فلم ينهزم وقال : « نودع من خلقهن الله في أحسن تقويم »

فقلت : ولكن فيهن من خُلقن على صور الأبقار والجواميس ، فهل نحتفل بوداع هؤلاء أيضاً ؟ »

فلم يصدّه حتى هــذا ، فلم يبق إلا أن نتوكل على الله ونستودعه نفوسنا ونذهب إلى مدينة الملاهي كما أراد ، وحسناً فعلنا ، فما كان يمكن أن نرى حشداً أعظم من هذا في مكان أضيق من تلك التي سموها مدينة الملاهي ؛ وكانت النساء أكثر من الرجال ، وهن وحدهن معرض كامل ، فما يخطر للمرأة صورةٌ من صور الخلق في المرأة إلا وهي موجودة ، وكانت الكثرة من العذارى الخود ، والخُرّد الحسان ، اللواتي يترقرق المـاء في وجوههن من نضرة النعيم ، ويتثنين من اللين في غير استرخاء ، أما القلة فكانت من الخِدِلَّجات الممتلئات الأذرع والسيقان ، العظيمات الأوراك والبطون ، المترجرجات اللحم ، المستديرات كأنهن البراميـــــل ، فلو أرقدتهن على جنوبهن ودفعتهن لتدحرجن بلا توقف

وكنت كلما رأيت واحدة من هؤلاء وقفت كالجندي ، ورفعت يدي إلى جبيني بالتحية العسكرية ! فيسألني صاحبي عما أفعل ؟ فأقول : « هذه تحية العظمة ياسيدي ! ! إلى متى نظل نبخس الناس أشياءهم ونغمطهم في مصر ؟ ؟ لقد آن جداً أن نقر لكل انسان بحقه ومزيته »

والتقينا بأصحاب لنا ، فصرنا جماعة ومضينا نتنقل من مكان إلى مكان ، وإذا بي أرى قريباً لي ومعه صديقة له ، ما رآني قط مقبلا عليه وهي معه إلا نهض بها زاعماً أن عليه أن يفعل كيت وكيت ، أو أن يقابل فلاناً أو علاناً من خلق الله الذين يتحرى أن ينتقي لهم أسماء لا أعرفها لانها مخترعة لا وجود لها ، فأكاد أتميز من الغيظ ، ولكن ماذا أصنع ؟ غير أني في هذه المرة أدركته قبل أن يقوم — أعني قبل أن يراني ، وكان جالساً معها — كما لا أحتاج أن أقول ، فحملت كرسياً إلى حيث هما ، ووضعته وقعدت عليه أمامهما ، ثم حييتهما أحسن تحية وأرقها — تحية تلين الصخر ، لا بل تذيبه — ولكنّ قريبي ، وقاك الله ، أصلب من الصخر والحديد ، فما كاد يراني أصافحها حتى قال لها وهو يجذبها من ذراعها : « تفضلي فقد تأخرنا جداً »

فابتسمت — وهل كان يسعها إلا ذلك وهي ترى هذا منه في كل لقاء ؟ — فتشجعت وقلت : « يا أخي حرام عليك ! ! ما هـذا العنف ؟ — هذا ذراع غض بض ياسيدي ، وليس بعصا شرطي ... »

فابتسمت مرة أخرى ، فقلت في سري هذه علامة الرضى ، وإنها والله لراغبــة في البقاء ، وتذكرت قول زميلنا القديم : « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » فقلت لها : « العجلة من الشيطان يا مولاتنا . . ومازلنا في أول الليل ، ومايدريك ويدريني أنها ليست مشتاقة أن تركب معي واحداً من هــذه القطر التي تشبه الترام وتجري بالكهرباء وتتــدافع وتتصادم فتتعالى الصيحات والصرخات وتجلجل الضحكات ، وتنشرح الصدور . . . قومي ياستي معي أركبك واحداً منها »

فصاح بي وهو يدفع ذراعه أمامها ليمنعها أن تقوم : « معك ؟ تقول معك ؟ . معك انت ؟ . ياخبر اسود ! . إنت مجنون ؟ »

فلم تفزعني هذه الثورة ، لأني أعرف سببها وباعثها ، وقلت له وأنا أبتسم : « صحتك . . صحتك . . لا تهيج هكذا فاني أخاف على قلبك . . ألم ينصحك الطبيب بالابتعاد عن كل ما يهيج أعصابك ؟ . أقعد . . أقعد ساكناً واشرب ماء بارداً حتى نعود اليك . . لن يطول غيابنا عنك . . قومي يا سيدتي . . لا تقلقي عليه . . إنه بخير ما اجتنب ما يورثه اضطرابَ الأعصاب »

فنهض هو بدلاً منها وقال بلهجة المغيظ المحنق : « أعصاب ؟. قلب ؟ . طبيب ؟ . عن أي شيء تتكلم ؟ . كيف تسمح لنفسك أن تقول إني مريض بقلبي ؟ . »

فضحكت وقلت : « لا مؤاخذة ! . لقد نسيت أن عقلك لا قلبك هو المريض . . على كل حال . . عقلك . . قلبك . . سيان . . والخطأ مردود . . والآن وقد انتهى الخلاف وحسمنا

النزاع فيحسن أن ندعك وحدك قليلاً حتى تثوب اليك نفسك الوديعة الرقيقة الكريمة الجمة المروءة ا . . . ا . . ماذا أيضاً يا بارد يا أناني ! ؟ »

فأرسلتها الفتاةُ ضحكة مجلجلة تجاوبت نفسي بأصدائها ، فصار رنينها في قلبي لا في الفضاء . ولكنه قطع عليها الضحك بيمين أقسمها ألا تقوم معي ، فوجمتْ وشعرتُ بقلبي يبكي لها ، فقد كان من الواضح أنها تشتهي أن تركب هذا الترام ، وقريبي يأباه عليها لأنه يؤثر الاحتشام والتلفع بالوقار ، ثم قلت لها : « لا بأس . . لا بأس . . ما لا يدرك كله لا يُترك كله . . أنظرى إلى وأنا أركب وسأترك مكانك إلى جانبي فيها خالياً ، في وسعك أن تتصورى نفسك جالسة فيه كما سأفعل تماماً . . وإلى اللقاء القريب ، وعسى أن تتمتّى بهذه اللعبة التي ألعبها إكراماً لسواد عينيك . . أم تراها زرقاوين ؟ ؟ أرنيهما بالله قبل الركوب حتى لا يغلط خيالي . . »

فقال قريبي على سبيل التوديع : « اذهب ، اذهب ولا تعد ! »

فقلت : « يا شيخ حرام عليك ! أنا شاب . . »

وركبت وحدي احتفاظاً لها بمكانها ، وكان يكفي أن أصون لها مكانها في قلبي ، ولكن الوفاء — صانك الله — داءٌ مكتسبٌ . وكان الميدان هادئاً ، والراكبون يتحاورون ، ويهرب بعضهم من بعض ، ويتّقون التصادم ، وإن كان لا خوف منه ، فجريت أنا على نقيض ذلك ، وجعلت وكدى أن أصدم الذي يروقني ، وكنت كلما أقبلت بسيارتي على أخرى لأصدمها أصيح براكبها — وأنا أدفع بقبضة يدي في الهواء — بُمُمم ! فملأ الصخب — كما ينبغي أن يحدث — وكثر الضحك واللغط والصياح والصراخ ، وانتهى الدور فنسيت صاحبتي التي تركتها مع قريبي ، وشغلني ما أنا فيه عنها ، وألهاني عن ذكرها كما هي عادتي ، فان اللحظة الحاضرة تذهلني عن كل ما مضى وكل ما عسى أن يجيء ، ولبست دوراً آخر ، ثم غيره ، وغيره ، حتى أضناني الجهد المتواصل ، وابتلت ثيابي من كثرة العرق المتصبب ، فتذكرت قريبي وصديقته ، وقلت أجلس معهما برهة أستريح فيها وعسى أن يهديه الله ويرقق قلبه القاسي ، وعدت إلى حيث تركتهما فاذا بهما قد ذهبا . .

أي والله يا ناس ! ! خطفها قريبي — قريبي لا أحد الغرباء — وطار بها وخلفني أتلهف عليها وأسخط عليه ، وأذم الغدر والخيانة والأنانيــة والأثرة وألعن أمثاله من الأقرباء الذين يعمر قلوبهم الحسدُ والحقدُ لا الحب والاخلاص والتعاون على البر والتقوى

ولمحت صديقنا الدكتور م . فقلت أسلم عليه ، وكان حوله سربٌ من الناعمات اللينات ، المسترسلات الأعطاف ، المستغنيات بالجمال عن الزينة ، المُبتَّلاتِ الحسن على الأعضاء فلا ترى لشيء في أجسامهن الحلوة أوفر من حظه أو أقلّ ، فدنوت من إحداهن — وكانت طويلة العنق ممسورةً لا رخوةً ولا مترهّلة — وقلت لها : « ماذا يقول لكن دكتورنا الساحر ؟ . هل لك في رهاني ؟ . »

قالت : « على أي شيء ؟ »

قلت : « على أن عينه زائغةٌ وأنه يريد أن يتزوجكن جملة وإن كنتن سبعاً ؟ »

فضحكت وقالت : « صدقت »

قلت : « هاتي إذاً ، وليعوضك الله خيراً . . واحذرى أن تراهنيني مرة أخرى »

قالت : « ولكني لم أفعل »

قلت : « بلى .. هاتي !. ما هذه المماطلة ؟. إنه خلقٌ لا يليق بمثل هذا الجمال المشرق »

قالت : « أما إن هذا لغريبٌ . . والله ما راهنتك »

قلت : « لا فائدة . . تفضلي معي إلى هــذا الترام واركبيه بجانبي ، فان ركوبه موصوف لابراء الذمة »

فضحكت وسألتني : « ولكن من أنت . . »

قلت : « أنا صاحب الدكتور الذي يريد أن يتزوجك على كل هذه الضرائر ... تعالى واكسبي صداقتي لتفوزى به وحدك »

ولحقني الدكتور وأنا أمضي بها فصاح : « اللصّ .. اللص .. أدركوه . خطف البنت .. الحقونا يا ناس »

وخفت أن يصدق بعض البلهاء فأقع في مأزق ، فجعلت أصيح مثله : « اللص .... أدركوه .... خطف البنية .... اجروا وراءه »

وانحدرنا الى الملعب ونحن نكاد نسقط على الأرض من كثرة الضحك . وقبل أن يبدأ اللعب وتدور السيارات تآمرت مع زميلتي على الدكتور واتفقنا أن نركبه سيارة وأن نوسعه بعد

ذلك صدما وخبطاً ، فانا نعرفه يخاف الرجات ويشفق من عواقبها — لا ندرى لماذا — وقد كان . حاولنا اقناعه بالحسنى أولاً فلم يقتنع ، فلم يبق إلا أن نحمله قسراً على الركوب ، فجرته أربع فتيات فظل يقاومهن حتى قلت له : « أظنك استحليت هذا الجرّ ... تفضل يا ... »

فكف عن المقاومة استحياء ، وقال لى وهو يركب السيارة : « الله يلعنك يا شيخ ... أخجلتنى والله ! »

قلت : « لا عليك يا مولانا ... تفضل وأرنا همتك »

وصدمته صدمتين ، ثم تركته لمن هن أولى بذلك ، فلما خرج نظر إلىّ وقال : « وصلتنا منك زقات يا سيدى .. نشكرك »

فقالت له احدى الفتيات : « لو كنتَ ركبتَ معى يا دكتور ؟ ؟ ... »

فقاطعها وقال : « إذن لكانت الزقات قد كثرت يا ستى .. كلا ! الخيرة فى الواقع »

وهكذا ودعنا مدينة الملاهى ..... فليتها تعود لتودعها مرة أخرى ....

ابراهيم عبد القادر المازنى

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

الدفتريا

بين واضع سمها الفرنسىّ ، وكاشف ترياقها الألمانىّ

وصل الفائت

اكتشف لفلار مكروب الدفتريا ، ووجده فى حلوق الأطفال ، ولم يجده فى أى جزء آخر من أجسامهم . فتعجب كيف أن المكروب لا يفارق هذه الحلوق ؟ ومع هذا يسرى بالموت فى الأجسام . فتراءى له أن المكروب لابد يفرز سماً هو الذى يدور فى الجسم فيميت . فجاء أميل رو بعد ذلك فحقق رؤيا لفلار فكشف عن هذا السم ، واستخلص وعرف خواصه ، وأن الأوقية منه تقتل ٧٥٠٠٠ كلب

— ٣ —

ولكن كان فى مكان آخر بعيد عن باريس أميل آخر قائمٌ فى مثل هذا العمل ناصبٌ فيه . هذا أميل أغسطس بارنج Emil August Behring . كان يشتغل فى معمل كوخ ببرلين ، فى ذلك البناء المهدّم الذى يسمى المثلث Triangel فى شارع شومان . فى هذا البناء أخذت الحوادث تتمخض عن أمور جليلة ، وكان به كوخ ، ولم يكن الآن دكتور القرية الصغير الخامل ، بل كان السيد الأستاذ ، ومستشاراً من مستشارى الدولة صاحبَ جاه وربَّ ذكر ، ولكن برغم هذا لم تضق قبعته برأسه وكان ينظر على عادته من خلال نظارته المعهودة ولا يتكلم إلا قليلاً ، وكان نصيبه من احترام الناس كبيراً هائلاً ، وكان عندئذ مشغولاً بأمر علاج للسلّ خال أنه اكتشفه . فكان يحاول أن يقنع نفسه على الرغم منها بأنه علاج صادق ، وكان هذا بسبب إلحاح السلطات عليه فيه ، (والعلماء يلعنون السلطات بحق أحياناً على الرغم مما يكون من جودهم وسابغ كرمهم) ، أو على الأقل بهذا يتحدث اليوم شيوخ صيادى المكروب الذين حضروا ذلك العصر ولا يزالون يذكرون أحداثه المجيدة

« لقد أسبغنا عليك الشارات ، وأعطيناك المكرسكوبات والخنازير الغينية وما إليها ، فلا أقل من أن تردّ الجميل فتكشف لنا عن علاج كبير يدوى خبره فى الآفاق ، فيبنى للوطن الألمانى مجداً كالذى بناه بستور لوطنه الفرنسى » . هذا ما كان يسمعه بستور كل يوم . هذا صوت الغواية الذى يطرق أذنه كل حين ، وإلى هذا الصوت استجاب كوخ أخيراً ، ومن ذا الذى يلومه ؟ وأى إنسان يقوى على الثبات على طريق العلم السوىّ ، وإلزام نفسه أسلوبَ البحث الحق ، والحكومات إلى يمينه تصيح به أن يجد لها مكانة فى السماء ، والأمهات إلى يساره تصرخ له عسى أن يجد لأولادهن الهالكين مكاناً بين الأحياء . نعم إلى هذا الصوت استجاب كوخ ، فكشف عن حتفه بظلفه ، وأعلن للدنيا اكتشافه التوبركولين Tuberculin علاجاً للسل ورحمة للمسلولين ، فكان من إخفاقه الذى كان ، ولكن ما لبث كوخ أن قام يكفّر عن هذا باعانة الشبان من أعوانه فى الكشوفات البارعة التى كانوا فيها ، ومن هؤلاء الشبان أميل بارنج ، وكان باحثاً شاعراً أعانه كوخ بقريحته النقّادة الباردة ، صوّب ضوء مصباحها الهائل على أعماله ، فاستعرف بارنج فى نورها الساطع على

ما يأخذ به ، واستعرف فيه على ما يَدّع

أى بيت لصيادة المكروب كان بيت « المثلّث » هذا . كان قذراً معتماً كالقبر ، ولكن اجتمع فيه رجال كوخ الشباب فبثوا فيه الحياة بتجاربهم المتواصلة ، وهزوا جدرانه هزاً بصراخهم وحجاجهم فيه ، وكان من بينهم بول إرليش Paul Ehrlich ، يُعقب السيجارةَ أختها ، ويلوث يديه وثيابه حتى وجهه بكل صبغة من كل لون من ألوان الطيف ، وكان قائماً بتجارب طموح ، يحاول بها أن يعرف كيف ترث أطفال الفئران عن أمهاتها الحصانة من بعض سموم النبات .. وكان من بينهم كيتاساتو Kitasato ، وكان يابانياً ذا وجه أقور كالدائرة ، وكان قائماً يحقن بَشِيلاّت كُزاز الفك فى ذيول الفئران ، ثم هو يصبر حتى تصبّ البشلات سمها فى الفأر ، ثم يقط ذيولها الوبيئة ليرى هل يقتلها السم وحده وهى بتراء .... وكان من بين من كانوا فى هـذا البيت رجال آخرون ، بعضهم ذهب الزمن باسمهم ، وبعضهم اشتهروا وخلد ذكرهم ، واختصاراً قامت هـذه العصابة الألمانية تبغى هزيمة الفرنسيين تحت وابل من التجارب هائل ، وتريد أن تسبقهم إلى تخليص بنى الانسان من أرزاء دنياهم

والآن نريد أن نخص بالذكر من بين هؤلاء أميل بارنج . كان شاباً عدا الثلاثين من عمره ، وكان طبيباً فى الجيش ، وكانت له لحية آنق من لحية كوخ ، ولكنها كانت أقل دلالة على فتق الحيلة وابتكارها ؛ مع هذا وبرغم أسلوب لحيته المُرسل ، كانت له رأس الشاعر ؛ وبرغم حبه للفصاحة وإغرامه بفنون البلاغة ، لَزِم خوان معمله بقدر ما لزمه أى باحث آخر . وبينا هو يكشف فى دم الفئران عن مادة تقتل بشلة الجمرة ، كان يصف كشف أستاذه كوخ لبَشلة السلّ بأنه فى المجد مثل قمة جبله الحبيب بين جبال الألب ، وهى فى بياض الثلج ولون الورد ، ولزمته فكرتان ما فتئتا تطوفان برأسه . فكرتان عليتـان ومع ذلك تمتّـان إلى الشعر بنسب قريب . إحداها أن الدم أبدع سائل يدور فى جسم حىّ ، والثانية أنه لا بد من وجود مواد كيميائية تقتل فتمسح المكروبات من أجسام الانسان والحيوان مسحاً دون أن تضرّ بها وهذه الفكرة الأخيرة سبقه آخرون إليها

قال « سأجد مادة كيميائية تُبرىءُ من الدفتريا ! » ، وحقن طوائف عديدة من الخنازير الغينية بزريعات قتالة من مكروب الدفتريا . فلما مرضت ، وازدادت مرضاً ، حقن فيها كثيراً من المركبات الكيميائية . فجرّب فيها أملاح الذهب ، وهى أملاح غالية ، وجرّب النفثيل أمين Naphthylamine ، وحقنها بما يزيد على عشرين مادة بعضها عادىّ مألوف ، وبعضها غريب نادر . عرف أن هذه المواد تقتل المكروب فى أنبوبة الاختبار دون أن تضرّ بزجاجها ، فآمن فى سذاجة أنها لا بد تقتل هذا المكروب تحت جلد الخنزير الغينى دون أن تضرّ به ، ولكن خاب إعانه وأسفاه . وامتلأ معمله بالخنازير الميّتة والتى هى فى سبيل الموت فكان كبيت الجزارة ، وكان فى ذلك مايكفى ليقنعه بأن الفرق بين عقاقيره والمكروب فى الأذى غير كبير ، وأن كليهما يفتك بالخنازير ، وزادت أكوام الجثث حوله ، ومع هـذا لم ينقص إعانه بأن هذا العُقّار العجيب الذى سيَشفى من الدفتريا لا يزال مختبئاً بين صفوف المواد الكيميائية ، وهى ألوف فى الوجود ، وأخيراً وقع من بحثه الذى أفرغ فيه كل عزمه وخبط فيه على غير هدى ، وقع على مادة ثالث كلورور اليود

ضرب بمحقنه جرعات عـدة من بشلة الدفتريا تحت جلود بضعة من الخنازير ، وكانت جرعات تكفى لقتلها . ومضت ساعات قليلة فأخذ المكروب يفعل فعله ، فتورم الجلد حيث ضرب المحقن ، وأخذت الحيوانات تميل برءوسها : فلما مضت ست ساعات حقن بارنج فيها كلورور اليود . وانتظر ما يحدث لها فقل رجاؤه فيها وظن أن الاخفاق جاءه مرة أخرى . ومضى النهار ولم تتحسّن الحال . وجاء الغد فبدأتِ الخنازير تخور . فأخذها وأرقدها على ظهرها ثم أخذ يَخزُها باصبعه ليرى هل تعود فتقف على أرجلها . قال لأعوانه وهم فى دهشة مما يسمعون : « إذا أنتم وخزتم الخنزير وهو على ظهره فاستطاع القيام ، علمتم أن الرجاء لم ينقطع فيه بعد » هذا هو محك الأمل عنده ! هـذا هو مقياس الرجاء ! مقياس تعوزه الدقة إعوازاً شديداً ، وينقصه التهذيب نقصاً كبيراً . تخيّل ما يكون الحال لو أن طبيباً اتخذه وسيلة يعلم بها أيطيب مريضه أم يموت . وقلّت حياة الخنازير المحقونة بالكلور فقلّت حركتها عند الوخز حتى انقطع منها الرجاء

وذات صباح جاء بارنج معمله فوجد الخنازير واقفة على أرجلها !

كانت لا تكاد تستقر عليها ، وكانت نحيفة غاية فى النحف ، ولكنها كانت آخذةً فى الشفاء ! نعم آخذة فعلاً فى الشفاء من الدفتريا بعد أن هلك قبلها من رفقائها ما هلك

وهمس بارنج لنفسه : « لقد شفيتُ من الدفتريا ! »

وتملكته رغبة حادّة أن يشفى بهذه المادة اليودية خنازير أخرى . فكانت هذه الحيوانات المسكينة تموت أحيانا من المكروب ، وأحيانا كان يقتلها هذا الدواء . وفى القليل النادر كان يُشفى خنزير أو اثنان فيقومان من المرض على حال كالموت . لم يكن فى هذا العلاج الفظيع يقين ، ولم يكن فيه منطق ولا توافق وانسجام . والخنازير التى اشتفت به لاشك ودّت أنها ما اشتفت ، ذلك لأن الكلورور بينما كان يُبرِئُها مما بها ، كان كذلك يحرق جلودها فتتخرّق خروقا تظل متقرّحة لا تلتئم ، فلا تلبث أن تصطدم بشىء حتى تَصِيت هـذه الحيوانات المسكينة من ألمها الشديد . تلك حال مفجعة لا ترضاها القلوب

ومع هذا فالحقيقة الواقعة أن بارنج كان بين يديه قليل من تلك الخنازير لولا هذا اليود لقتلتها الدفتريا ، لولاه ما سمت بين يديه كما تسمى . إنى أفكر كثيراً فى أمر هذه القوة الخفية الدفاعة التى لا تفتأ تغرى بارنج وأمثال بارنج بعلاج الأمراض . فبارنج وأمثاله لم يجروا فيما صنعوا وراء الحقيقة ، ولم يدأبوا ما دأبوا ليجتنوا المعرفة ، بل هم انما مارسوا التجْرِبة طلباً للعلاج ، وتسلّط عليهم طلب العلاج فطلبوه جنونا ، فأجازوا قتل الحيوان حتى الانسان بداء ليخلّصوه من داء آخر .... لم يقفوا عند حدّ ، ولم تنههم عما طلبوا مخافات .... من ذلك أن بارنج قام يجرب هذا الكلورور النفّاط الكاوى فى الأطفال المرضى بالدفتريا وليس لديه من دليل على صلاحه غير تلك الخنازير القليلة النحيلة الهشيمة

وعاد من تجربته يقول : « لقد جربت كلورور اليود فى أطفال مرضى بالدفتريا ، واتبعت فى ذلك الحذر والحيطة ما استطعت ، فخرجت على نتائج لا تُشجِّع أبدا ... »

ولكن تلك الفئران الضعيفة التى نجت من الدفتريا بفعل هذه المادة كانت لا تزال بين يديه ، كانت لا تزال تقع عليها عيناه فتعلّق بارنج من أجلها بوهمه القديم ، أنه لابد خارج من هذه المجاز يمض غايته . وتعطّفت عليه المقادير ، فأخذ يتفكّر ، وإذا به يخرج من الفكر فيتساءل : أتكون هذه الفئران قد تحصّنت الآن من الدفتريا بعد الذى جرى لها . وما لبث أن جاء بها وحقن فيها جرعات هائلة من بشلة الدفتريا — فاحتملتها ! نعم احتملتها فلم تستقم شعرة واحدة على جلودها برغم هذه الملايين من المكروبات وهى كفيلة بقتل عشرة منها . إنها حصينة كما خال !

وكانت عندئذ ثقته فى المواد الكيميائية ضاعت ، فلم يعد يطلب من بينها علاجاً للدفتريا . وكيف لا تضيع بعد هذا العدد الهائل من جثث الحيوانات الذى أرسله إلى أسفل البناء ليقوم الخدم باحراقه . أضاع أمله فى الكيميائيات ، ولكنه تمسك برأيه القديم عن الدم ، فكان لا يزال يرى أنه أبدع سائل يدور فى جسم حىّ . أعجِب به حتى عبده . واتقد خياله فارتأى له فضائل لا تُرَى وخصائص غريبة لم تُسمع . فقام إلى فئرانه العاجزة الضعيفة التى برئت من الداء فمص شيئاً من دمها ، مصّه بمحقنه من شريان فى رقبتها ، ثم أودع هذا الدم أنابيب من الزجاج ، ثم ترك هذه الأنابيب حتى انفصل من الدم مصله الرائق الأصفر ، فصعد مخلّفاً فى أسفل الأنبوبة قطعه الحمراء ؛ ثم مصّ هذا المصل فى أنبوبة صغيرة ، ثم خلطه ببشلات الدفتريا الفاتكة

وتفكّر بارنج : « لا شك أن دم الفئران به شىء يحصّنها من الدفتريا . لا شك أن به شيئاً يقتل بَشِلاّت الدفتريا ... »

ثم نظر إليها فى هـذا المصل من خلل مجهره وهو يؤمّل أن يراها تنضمر ثم تموت ، فلما حدّق فيها وجدها ترقص وتزيد ، إذن هى لا تموت بل تزيد وتربو ، أو على حد قوله الأسيف فى بعض ما كتب « تتكاثر فى وفرة عظيمة » . ولكن مع هـذا فالدم سائل عجيب بديع . ولابد إليه ترجع حصانة هذه الخنازير . وهتف فى نفسه هاتف يقول : « وعلى كل حال ألم يثبت هـذا الفرنسىّ رو Roux أن البشلات لا تقتل بل الذى يقتل هو السم الذى تصنعه ؟ ألم يثبت أن سم الدفتريا لا بشلاتها هو الذى يقتل الأطفال والحيوانات ؟ . . . إذن فلعل هـذه الخنازير الغينية التى شفاها الكلورور قد تحصّنت من سم الدفتريا ! »

وأخذ فى التجربة . وبعد زمجرة وأفأفة ، وبعد تبلّل وتقذّر قمينين بكل شاعر عالم ، جهّز بارنج حساء احتوى سم الدفتريا وخلا من مكروبها . وأخذ من هذا الحساء لحقن جرعات هائلة تحت

خنازيره الحصينة وكان قد تناقص عددها . فاذا بها حصينة السم . وأخذت قروحها الماضية تلتئم ، وأخذت تكبر ا .. هذا أمر لا شك جديد فى علم المكروب . أمرٌ ربما ارتآه رو ولكنه لم يتحقق على يديه . حمى بستور الشياه من الجمرة ، وحمى الأطفال وحصّنها من عضة الكلاب المسعورة ، كن هذا الذى أتاه بارنج غير هـذا وذاك . هذا أمر طريف العقول حيرى . بارنج يصيب الخنازير بالدفتريا ، ثم هو فيها منها بعلاج فظيع كاد يوردها الموت ، ثم هو بذلك يحصّنها سم الدفتريا الفتاك ، من ذلك السم الذى تقتل الأوقية منه ٧٥٠٠ كلب

« صاح بارنج : « فى هـذا الدم لا شك يوجد الترياق الذى مى هذه الخلائق ، وفيه لابد أنا واجده ! »

وكان لا بد له من الحصول على شىء من هذا الدم ، ولكن يبق لديه من هـذه الخنازير الحصينة شىء ، أو لم يكد يبق منها شىء ، فعمد إلى خنزير قديم منها كان استنزف دمه مراراً ، فشق رقبته يبحث عن الشريان الذى يمص منه الدم فوجده انعدم ! أو كاد من كثرة ما عاوده . فأخذ ينكش حتى حصل على بقية قليلة من الدم جاء بها من شريان فى رجل هذا الحيوان . لله من حيوان جدير بنا أن نذكره بالحسنى . لقد قاسى بارنج فى أيام هذه التجارب ألماً نفسياً كبيراً ، كما قاست حيواناته ألماً جثمانياً كبيراً . فلو أن رحمتنا تُقسّم بينهما ، بين بارنج وحيواناته ، ما درينا أيهما أحق بأكثرها . كان يستيقظ كل يوم فيذهب تواً إلى معمله وهو متوتر الأعصاب ليطمئن على حياة هذه الخنازير الحصينة ، هذه الخنازير القليلة المتناقصة التى لا تُشترى بمال .... وعلى كل حال حصل أخيراً على قطرات قليلة من مصل حصين . فزجها فى أنبوبة من الزجاج بمقدار كبير من حساء كان ربّى فيه مكروب الدفتريا لكى يبث فيه من سمه . ورشح الحساء قبل مزجه بالمصل ليخلص من المكروب

وحقن من هذا الحساء الخليط فى خنازير غينية جديدة غير محصّنة — فاذا بها لا تموت

صاح بارنج : « صدق جوتيه Goethe الشاعر العظيم حين قال : « إن الدم عصير غريب ».

وأخذ يستعد بعد ذلك لتجربته الحاسمة الشهيرة ، وعين كوخ الامام الأكبر لا تبرح تنظر اليه ، وتجمعت حوله تلك العصابة الصغيرة المجنونة من رفقائه فى ذلك المعمل ، وازدحموا وقد احتبست أنفاسهم فى انتظار ما قد تتمخض عنه هذه التجربة الكبرى ، فخلط سم الدفتريا بمصل أتى به من دم خنزير سليم لم تصبه الدفتريا يوما ، ولم يتحصن منها أبدا . ثم حقن هذا السم الخليط فى خنازير جديدة ، ففعل فعله المنتظر فيها . ولم يعقه عن ذلك المصل الذى خالطه ، فساء حالها بعد ثلاثة أيام وسرى فيها برد الموت . ووضعها على أظهرها ووكزها ولكنها لم تبد حراكا ، ولم تمض ساعات حتى لفظ آخر أنفاسها وذهبت إلى حيث يذهب الأموات

فصاح بارنج : « إن مصل الخنازير الحصينة — مصل الخنازير التى أصابتها الدفتريا ثم اشتفت منها — هذا المصل وحده هو الذى يقدر على محو سمّها . وكأنى بك تسمعه يتمتم لنفسه وهو المداوى الكبير : « والآن فلعلى قادر على تحصين حيوانات أكبر ، فاستخراج مقادير أكبر من هـذا المصل الذاهب بسم الدفتريا ، وعندئذ آخذ فى تجربته فى الأطفال المصابين ..... إن الذى يشفى الخنازير الغينية لا بد أن يشفى الأطفال »

فى العدد القادم : بارنج يجرب مصل الدفتريا فى الأطفال

أحمد زكى

حِيَلُ الضمير

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

الضمير عند بعض الناس ترس الخائف الذى يحتمى بمجنه ، وهو عند غيرهم سلاح الصائل ، وعند آخرين آلة نصب واحتيال ، وعند غيرهم بمنزلة الثياب الجدد التى يلبسونها أيام الأعياد والمواسم والصلوات ويخزنونها فى الأيام الأخرى وهو تارة كالمصباح المنير

وترى كثيراً من الناس يكثرون من ذكر ضمائرهم أو يفعلون ما هو أدهى من ذلك فيكثرون من ذكر العدل والحق ، وهى لقيمات يطرحها كل منهم ويود أن يضعها فى فم غيره ، وهى أحمال وأثقال يمدحون الاضطلاع بها وكل يود أن يضعها على كتف غيره أو على عنقه ، وما ذلك إلا لأن الناس ينشدون السعادة ، والسعادة لا تكون إلا إذا اصطلح شر الحياة وضمير الانسان ، وإذا اصطلح المثل الأعلى ومثل الحياة الدنيا ، وقد يكون فكر المرء وقوله خيراً من خلقه وفعله ، لأن أعمال المرء رهينة باحساسه لا بفكره وقوله ، وقد يكون فكره نبيلاً وقوله جليلاً ولكن إحساسه يدفعه إلى سبيل غير سبيل هذا النبل والجلال فى القول والفكر

ولما كانت الرذيلة أحوج الأشياء إلى مظاهر الفضيلة عم الكذب والرياء بين الناس انتفاعاً بمظاهر الفضيلة وحقيقة الرذيلة من كسب أو متعة . وهذه المظاهر تجوز على الناس ويحسبونها فضيلة أو هم يدعون الانخداع لها رغبة فى التقرب إلى صاحبها والانتفاع برضائه عن انخداعهم بظواهر نفسه ، وهذا منشأ انقلاب أوضاع الحياة ، وهم يطلبون منه أن يدعى الانخداع بظواهر نفوسهم كما ادعوا الانخداع بظواهر نفسه ، والمسألة كلها مسألة كسب يتبادل فيتعاونون على الحياة بتزكية كل منهم الآخر

وللضمير وسائل أخرى لتزكية النفس كأن يخلع صاحبه عيوب نفسه على غيره ، ويلج فى معاداته كى يبرئ نفسه فتكون لجاجته فى خلع عيوبه على غيره دليلاً على عيوبه كما تكون لجاجة الأجرب فى الحك دليلاً على موضع الجرب منه فى نظر الطبيب

وكثيراً ما يتمحل الضمير الأعذار من أجل رغبة صاحبه فى الأذى ولذته فى الاساءة إلى الناس ، وعوامل الشر فى نفس المسىء قد لا تكون فى حاجة لمسوغ يثيرها ولكنها تكون فى حاجة إلى فرصة تستخدمها حتى ولو لم يكن لها مسوغ ، فان مسوغ الاساءة فى كثير من الأحايين فى نفس المسىء لا فى عمل من أسىء إليه لأن كثيراً من النفوس بها شهوة إلى الأذى إذا أرضتها أحست راحة وسعادة فى إرضائها ، غير أن بعض شهوات الأذى لا يرضيها إلا ما أرضى نفوس قدماء الرومان عند رؤية الوحوش تفتك بالأجسام ، وبعض شهوات الأذى تكتفى بالغيبة والنميمة والكذب ، وعواقب هذه قد لا تقل عن عواقب تلك جرماً وجناية وإن كان صاحبها لا ينعت بالمجرم الجانى وإن كان ضميرها أهنأ الضمائر بالاً وأروحها خاطراً

والضمير كثيراً ما يكون فى الحياة كالسفينة الصغيرة فى البحر المحيط الذى هاجته الأعاصير فقد لا تغرق السفينة كما لا يغرق الضمير ولكنها تضطر أن تسير فى مهب الأعصار كما يسير الضمير فى مهب أعاصير الميول النفسية وما تقتضيه من كذب ونفاق

والكسب والجاه والصداقة والغرور هى العقاقير التى تخدر الضمائر بها ، وهى البلسم الذى تداوى به آثار وخزاتها ، وهى المادة اللزجة التى تطلى بها الضمائر كى يصطاد بها أصحابها طيور السعادة واللذات والمكاسب كما تطلى الغصون بتلك المادة اللزجة التى تلتصق بها العصافير على غصون الأشجار ثم يأتى الصائد فيجمعها أو هى المادة اللزجة الأخرى التى يطرد بها الذباب اللاذع المسمى بخواطر التأنيب والوخزات

ومن أجل ذلك كثيراً ما ترى ضمير المرء عوناً للجانى الذى يرجى نفعه أو جاهه أو وده أو يرجى منه ارضاء غرور صاحب الضمير المناصر له . والناس فى سرائرهم يعرفون أن ضمائرهم ليست دائماً مصباح الهداية الذى يدعونه ، والانسان يتجنب فحص نفسه والبحث عنها ، وإذا كلف أو دفع إلى ذلك حاول التخلص من فحص نفسه فيقلب فحصها إلى حديث فيحدث نفسه أو تحدثه وعنها أو تمنيه ، ثم يعود فيقول إنه فحص نفسه وهو قلما يفعل ذلك إلا إذا دهمته مصيبة تجعله يشك فى نفسه فيفحصها فاذا لم تدهمه مصيبة تجنب فحص نفسه إلا إذا كان مريضاً بداء الخوض فى النفس وفحصها وقد يكون مرضاً إذا استفحل وعم وتطلب منه كل وقته ، ولكن مرض البحث فى النفس هذا مرض نادر فى الناس وأكثرهم لا يبلغ به البحث فى نفسه منزلة صغيرة

أو كبيرة ولو أن هذا البحث في النفس أصبح عادة لقل شرهم من غير أن يمنعهم بحثهم من الاقدام في الحياة إلا إذا استفحل وهو قلما يستفحل فيدعوهم استفحاله إلى الشك والتردد والاحجام واتهام النفس في كل أمر

ولولا أن الناس يعلمون عن عيوب ضمائرهم وضمائر النـاس الشيء الكثير الذي يحاولون إخفاءه ما كثر سوء ظنهم بالنفس الانسانية ، ومن العجيب أنهم يحاولون جعل حسن الظن بالنفس الانسانية مبدأً عاماً وهم في سريرتهم يسيئون الظن بكل نفس من نفوس الناس ، وهذا الاختلاف بين المبادئ النظرية والمعتقدات العملية أمر تشوق دراسته ، والقصد من تلك المبادئ النظرية حمل الناس عليها للانتفاع بهـا لأن كل إنسان يود أن يحسن غيره به الظن وأن يسيء هو الظن بغيره ، ومن عجائب الضمائر أنها قد تغرى أصحابها بأن يعتقدوا إذا حلت بأعدائهم مصيبة أن المصيبة حلت بهم لأنهم أعداؤهم

والخبرة بالضمائر ينبغي أن تحذر المرء إذا رأى متخاصمين فلا يقول إن أحدهما فاضل ذو حق والآخر ناقص ذو باطل ، فقد يكون كل منهما على حق أو على شيء من الحق أو على باطل ، وقد يكون الأكثر حقاً هو الأكثر حظاً من الفضيلة ، أو بالعكس قد يكون الأكثر حقاً هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، وقد يكون المناصر للحق والفضيلة بشعوره وعواطفه وبيانه هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، ولـكن النفوس قلما تتقصى كل هـذه الأمور ولا أهون عنـدها من أن تحكم بغير علم وأن تورط ضمائرها فيما حكمت فيه بغير علم ، ومع هـذا التورط فان الناس قد يعرفون أن جليسهم غدار مغتاب بذيء اللسان فلا يمنعهم يقينهم وعرفانهم من مؤاخاته ، وتتغابى ضمائرهم وتتعامى عن عيوبه وعن شره وقبح نفسه مادام مرجو النفع ، فضمائرهم تتورط في الحكم بغير علم وتمتنع عن الحكم على علم

وفي الخليقة صنف آخر من الضمائر تـكون أسقاماً عنـد أصحابها وتعظم عيوبهم في أعينهم ، وهذا مرض نادر مثل مرض إيغال المرء في فحص نفسه

وضمير صاحب الشعور النبيل له أن يطالب بألا يعاقب على نبل شعوره ولـكن ليس له أن يطلب جزاء أو شكوراً ، اذا كان جزاؤه في نبل شعوره واذا كانت مسرته فيه وشقاؤه في غيره

عبد الرحمن شكري

النيـــل
أبرز « شخصية » في العالم

عن مجلة « أمال » الفرنسية

إن المشكلة الحبشيـة مهما يكن حلها هي في الحقيقة وليدة معضلة النيل وذيولها الخفية

سُئل مرةً الـكولونيل لورنس : « أية شخصـية في العالم أكبر نفوذاً وأعظم شأناً ؟ » فأجاب هـذا الرجل الغريب الذي يعد أكبر مخاطر في عصرنا بكلمة واحدة هي : النيل

إن في جواب لورنس ما يدعو لأول وهلة إلى الاستغراب لأنه أنزل النهر منزلة العاقلين وجعل منه « شخصية » بارزة ، ولـكنه لم يخرج بتحديده وتعريفه عن اعتقاد قدماء المصريين في النيل ، فضلاً عن أن للكونيل لورنس ولـكل انكليزي سبباً يحمله على مجاراة الأقدمين في اعتقادهم . وهذه الرواية التي تمثلها إيطاليا وانكلترا ويخشى أن تنتهي بمأساة عالية ، أليس بطلها هذا النيل ، بل هذه الشخصية المقدسة التي عبدها الانسان قديماً ولا يزال يعبدها إلى اليوم ؟ .

ما فتئت بريطانيا العظمى منـــذ أنشأت امبراطوريتها الاستعمارية تطمع في السيادة على البحار ، وفي التسلط على أهم المعابر البحرية حتى تم لها ذلك ؛ ففي قبضتها الآن كل المغاليق التي تؤمن مواصلاتها بتلك الامبراطورية المترامية الأطراف ، وأخصها الهند كبرى مستعمراتها وأغناها وأصعبها مراسا

أدركت انكلترا منذ حملة بونابرت على مصر أن تأمين طريق الهند يقضي ببسط نفوذها على بلاد الفراعنـة دون أن يشاركها فيه أحد . ثم جاء فتح قنال السويس باعثاً آخر على تشبثها بهذا النفوذ . ومن تدبر سياسة انكلترا في خلال قرن كامل رآها تدور كلها على محور واحد ، هو سلامة طريق الهند . فـكل شبح تتخيل فيه ما يمس هـذه السلامة عاجلاً أو آجلاً حاذرته وسمت إلى طمسه . هكذا فعلت وكذا تفعل الآن في موقفها السلبي تجاه الغزوة الايطالية

إن الانكليز الذين يقبضون في السويس وعدن على مغلاق

البحر الأحمر لم يزعجهم وجود إيطاليا فى اريتريا ، ولـكنهم وجفوا إذ رأوا موسوليني طامعاً فى البلاد التى ينبثق منها النيل الأزرق ، ولذلك نراهم يلجأون الى كل الوسائل لاحباط مساعى الرجل الذى يحلم باعادة الامبراطورية الرومانية

النيل واهب الخيرات

النيل اذن شخصية كبيرة كما عرفه الـكولونيل لورنس ، وقد يكون أكبر شخصية فى تاريخ الشعوب التى عمرت شواطئ البحر المتوسط . قال هيرودوت قديماً : « مصر هبة من هبات النيل » وهذه حقيقة لأن مصر قيمتها بنيلها ، ولولاه لـكانت مفازة قاحلة لاشأن لها ، فهى شقة من الأرض تمتد من النوبة الى الدلتا ويجرى فيها خط طويل دائم الاخضرار ، ولولا هذا المجرى الحيوى الذى ينساب فى أحشائها ويروى غليلها لما كان للانسان والنبات والحيوان حياة فيها ، لأنها لا تعرف المطر إلا نادراً

فى شهر يونيه ترتفع مياه النيـل فتفيض على الأراضى ناثرة عليها طبقة من الغرين الذى يعد من أحسن أنواع السماد . ويبلغ معظم فيضانه فى أول أسبوع من شهر أغسطس ، فترتفع مياهه إلى ستة أمتار ، ثم تتناقص تدريجاً فيأتى الفلاح ويشق وجه الأرض بسكته التاريخية التى تشابه سكة سلفه منذ ألوف السنين ويستغل خيراتها فى شهرى ابريل ويونيه

جعل النيل من مصر بلداً خصباً غنيا ، فلا غرو أن سبق المصريون الأقدمون شعوب الأرض فى ميادين الحضارة والثقافة . كانت مصر موطناً لثمانى عشرة سلالة من الفراعنـة قبل ظهور موسى ، وكانت مسرحاً للحوادث التاريخية الـكبيرة قبـل أن تظهر للوجود أشور والفرس واليونان . ثم كانت مقصداً لطلاب العلم والفلسفة والثقافة من جميع الأنحاء ، فهى إذن كانت مهذبة الانسانية وحاملة نبراس المدنية فى العصور القديمة

ولـكن الى أى شىء يعزى تفوقها فى تلك العصور التى كانت شعوبها فى حالة البربرية ؟ كلمة واحدة تجيب على هذا السؤال ، وهى : النيل

لقد تعلم المصرى القديم كل شىء من نيله ، ولأجل نيله استنبط علم الفلك لـكى يحدد أوقات الفيضان ، واخترع التقويم والحساب ، وعلم الهندسة والمساحة ، وانشاء السـدود وشق الترع ، لـكى يستثمر النيل وينتفع بخـيراته . واننا لنجد ذكر النيل ورسومه فى أساطير مصر وفى كتب دياناتها ، وفى كل شأن من شؤونها ، فهو من مصر كالروح من الجسد

منبع النيل :

أين منبع هذا النهر العجيب واهب الخيرات ؟

كان فى اعتقاد الأقدمين أن مخرج النيل من جبال القمر ، وهذا الاعتقاد الذى يظهر لأول وهلة أنه وليد الخرافات مبنى على حقيقة عرفت يوم اكتشف منبعه الأصلى ، وهى أن أصول النيل تخرج من أعالى « أوجاموازى » ، وهذه اللفظة معناها « بلاد القمر » . وقد ظلت هذه الأصول مجهولة حتى أواسط القرن المـاضى ؛ وحاول كثيرون من الرحالة أن يهتدوا الى منبع النيـل فلم يظفروا بطائل ؛ فمحمد على أوفد ثلاث بعثات بين سنتى ١٨٤٠ و ١٨٤٢ ، فـكان نصيبها الاخفاق ؛ والفرنسى دارنو لم يصل الى أبعـد من الدرجة ٤٢ من العرض الشمالى ؛ والايطاليـان ميانى ودبونو ، والانكليزى بتريك ، والفرنسى لاجان ، لم يجاوزوا الدرجة الثلاثين . وظل منبع النيل سرا مجهولاً الى أن اكتشف الرحالة الانكليزى سبيك بحيرة تانجانيقا بين سنتى ١٨٥٧ و ١٨٥٩ فاذا هى مصدر النيل . وفى سنة ١٨٦٠ عاد برافقه جرانت لحدد بتدقيق مخرجه . فمنبع النيل الأبيض اذن هو بحيرة تانجانيقا العظيمة التى تزيد مساحتها على ٧٠ ألف كيلو متر مربع ، وموقعها يعلو عن سطح البحر نحو ١٣٠٠ متر

يتألف النيل الأبيض من شلالات ريبون ، ويسير قاطعاً المستنقعات والقفار والبحيرات ، وضاما اليه بعض الأنهر الصغيرة حتى يصل أرض الفراعنة ، فينساب بين سهولها وحيدا لا يعترضه شىء الى أن يصب فى البحر المتوسط . وطوله من منبعه الى مصبه ٦٢٨٠ كيلو مترا ، وهو أعرض من نهر الأمازون فى البرازيل ، وأطول من السيسبى فى الولايات المتحدة

أما النيل الأزرق فمصدره بحيرة تانا فى الحبشة ، ويتصل بأخيه النيل الأبيض عند الخرطوم عاصمة السودان . وهو غزير المياه ولا سيما فى فصل الأمطار فى الحبشة . ومدته من يونيه الى أواخر أغسطس . ولولا النيل الأزرق لما أروى النيل الأبيض وحده أراضى السودان ومصر ، فهو اذن عامل كبير فى حياة تلك

ـد الواسعة ؛ ولا يمكننا أن نتصور مبلغ نكبة مصر بفقدانها المجرى الحيوى

ـ والنيل الأزرق

إن بلداً كمصر يتوقف عمرانها بل حياتها على نهر ؛ ـبدع أن يهتم أولو أمره قديماً وحديثاً بالموضع الذى يخرج ـ هـذا النهر ويراقبوه بعين يقظى . وكما يشـغل اليوم بال ـنكليز خطر تحويل مجرى النيـل الأزرق إذا ما استولت ـ الحبشة دولة قوية ، كذلك كان يشغل أفـكار الفراعنة منذ ـف السنين مثل هذا الخطر ، فكانوا يحاولون دائماً التسلط على ـلحبشة التى كانوا يدعونها بلاد كوش لـكى يأمنوه . ولم يكن ـلأحباش أنفسهم غافلين عن هـذه الفكرة ولـكنهم لم يستطيعوا ـخراجها إلى حيز العمل الـكبير لافتقارهم الى الأدوات اللازمة ، ـوحتى اليوم لا يزال ضعف الامبراطورية الحبشـية وتأخرها ـفى مجالى الحضارة ضمانة لسلامة مجرى النيـل الأزرق . أما إذا استولت على الحبشة دولة أوربية صناعية مثل ايطاليا ، فما يمنعها غداً إذا أرادت أن تستثمر — كما تشاء — الثروات الطبيعية فى بلاد مساحتها نحو ضعفى مساحة فرنسا أن تحول النيل الى غير مجراه الحالى ؟

إن هذه الفكرة وحدها كافية لأن ترعب انكلترا التى ترى فى تحقيقها خراب السودان ومصر ، ولا عجب إذا رأيناها فى موقف الجد والحزم ازاء المشكلة الحبشـية التى هى فى الحقيقة معضلة النيل وذيولها الخفية ؟ (ترجمة العصبة)

بعض مايذكر

بعـــــد الزهاوى !

بقلم عبد الوهاب الأمين

أصبح « الزهاوى » الآن فى رحمة التاريخ الذى لا يرحم ! ودخلت « كان » الخالدة عليه ، فليس يشار اليه الا بها . وذهب فى عالم الشعر والخيال ، بعـد أن كان بشعره مرآة للحوادث المهمة فى حياته وحياة عصره

ولقد كان فى حياته — وما أشد وقع « كان » هذه ! — يتمتع بعطف شديد من طبقة الأدباء ، بقدر ما كان مغضوباً عليه من الطبقات المتعصبة ، ولقد يكون من المناسب أن أذكر الآن أننى كنت ممن نقدوا شعر « الزهاوى » بشدة ، وقد ساقنى الى ذلك وقتئذ اختلاف عصرى عن عصره بطبيعة الحال وبعد شقة التفاهم بين عاطفة شيخ من أدباء القرن التاسع عشر وميول شاب فى القرن العشرين لم يطمئنه ويرضه أدب لا يعبر عن ميوله ؛ وكنت فى ذلك الحين أترقب التشجيعين المنوى والأدبى بنقدى ذاك ، فما راعنى الا ذلك اللوم والعتاب الذى فجأنى من جماعة كثيرين كانوا مجمعين على أحقية النقد ، غير أن ذلك لم يمنعهم من أن يقابلوه بشىء غير قليل من التذمر ! حتى لقد بلغنى أن أحد من كان بيدهم الأمر حينئذ أشار الى رئيس تحرير الجريدة التى كنت أشتغل بها أن يطلب منى الـكف عن نقد « الزهاوى » ! وكنت فى ذلك الوقت اشتغل بالصحافة ، فلم يسعنى الا النزول على ذلك الطلب ، وكففت عن الـكتابة فى تلك الجريدة ، غير أنى تابعت نقده فى غيرها !

* * *

لقد أوخذ « الزهاوى » على بعض عقائد له جاهر بها فى حياته ، وعرف له فيها كثير من الاغراق والتطرف ، كما أنه كان يجد على تطرفه هذا كثيراً من المشجعين . وفى رأيى أن المؤرخ الذى سيكتب تاريخ حياة «الزهاوى» جدير به أن ينظر فى هذا الأمر بدقة عند كتابته حياة الفقيد ، فعلى فهم هذه الناحية من

حياة « الزهاوى » يتوقف تقدير أدبه ومدى تأثيره ، وما له وما عليه ، فلقد كان فقيدنا متطرفاً بالرغم منه . إذ أن ما اعتوره من الأمراض العصبية والأمراض الجسدية المزمنة ، جعله كذلك ؛ ومن هنا يدرك القارئ أن رأيه فى « اللذة والألم » الذى ناقشه فيه الأستاذ العقاد قبل سنين ، لم يكن مجرد اغراق منه كان يقصده للظهور بمظهر المخالف ، بل كان فى الحقيقة يمثل حالته النفسية والعصبية ، فقد كان يرى أن الألم فى الحياة أمر قائم بذاته ، وأن اللذة هى انعدام الألم ، وذلك طبيعى بالنسبة له ؛ فما كان يشعر باللذة فى حياته إلا فى الوقت الذى ينصرف فيه الألم الجسدى عنه !

وقد تنبه الأستاذ العقاد الى هذه الناحية عند التعقيب على تلك المناقشة [1] فأشار الى أنه لا ينكر أن « الزهاوى » يكابد من حياته ما له دخل كبير فى تمكين هذه العقيدة من نفسه

فالتطرف اذن هو الظاهرة التى تتركب عليها نفسية الزهاوى فى حياته الشخصية وحياته الأدبية ؛ واذا أدرك الناقد أو المؤرخ علة ذلك فى تكوينه وفى أعصابه ، فسيدرك بطبيعة الحال أن الاغراق والتطرف فى شعره قد يؤديان فى بعض الأحيان الى ظهوره بمظهر المنقلب على نفسه ، وعلى ذلك فليس فى شعر « الزهاوى » تناقض أو رجوع ، بل هى حالات نفسية جارفة تغلبت عليه فى وقتها فأنطقته بما خيل اليه أنه لا يتعارض وآراءه السابقة ، أو للتخلص من الضيق الذى سببته له بعض آرائه الجريئة ، كان يريد به تخفيف وطأة الطبقات المتعصبة عليه ؛ وفى هذه الناحية كان يبدو على شعره الشىء الكثير من التعمل الظاهر فيه حمله على نفسه ، وهنا لا يصح اعتبار مثل هذه الحالات ميزاناً للحكم على آثاره الأدبية والشعرية

* * *

يخطىء أشد الخطأ من يفاضل بين الزهاوى ومعاصريه من شعراء العراق ، فانه فضلاً عن سخافة فكرة المفاضلة لن تتوفر فيها الشروط الأساسية المطلوبة ، فانهم ليسوا « معاصريه » حقاً ولا يمتون اليه بصلة العصر . بل كان عمره المديد الملىء بخدمة الشعر والمساهمة فيه مثار الأشكال فى فهم شعره وحياته . فهو من بقايا القرن التاسع عشر ، وليس من رجال القرن العشرين وما كان بوسعه أن يخرج على نفسه فى هذا الأمر طيلة حياته

واذا كانت خطوات البشرية فى عصورها السابقة للقرن التاسع عشر قريبة المدى من بعضها ، واذا كان التشابه والتقارب بين تلك العصور موجودين فهما فى هذا العصر قد بلغا آخر درجات التباعد . وقد مرت مئات السنين على البشرية فى «عصر الظلام» فما كان لتلك السنين المديدة أن تؤثر تأثير بضع سنوات فى نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العشرين ، فيكاد هذان العصران يمثلان « سن الرشد » للبشرية والدهر ، ففيهما استيقظ الانسان وأحس وأدرك ، وظل كذلك يخطو بسرعة فائقة فى تقدمه حتى لقد كاد أن يكون من المشكل التفاهم بين الولد وأبيه ، كأن بعض السنين التى بينهما قد أقامت بين تفاهمهما حواجز العصور !

من هنا يدرك القارئ السبب فى وجود هذا البعد الكبير بين نفسية « الزهاوى » وبين نفسية شباب اليوم [1] وسبب نقمتهم على أدبه ، ومع كل ذلك فقد أرضى « الزهاوى » كثيراً من نزعات الشباب وأفكاره ، ودافع عن تلك الرغبات دفاعاً شغل حياته الطويلة ووسمها بسمات لا يستطيع مؤرخه اهمالها فقد كان من مناصرى المرأة والسفور والتجدد ، وظل كذلك الى آخر حياته ، برغم ما جرته عليه هذه الأفكار من المتاعب له ، ومن هنا أيضاً تتضح لنا أهمية الرجل فى العصرين اللذين كان له نصيب الحياة فيهما ، ومدى تأثيره فى كليهما

* * *

وبعد فهل يحق لنا أن نتفاءل بهذه الحركة التى قام بها بعض المعجبين بأدب الزهاوى ؟ وهل لنا أن ننتظر منهم غير ما تعودنا انتظاره فى مثل هذه الحال من دراسة منتظمة لعصره وحياته وآثاره ، أم لا تزيد هذه الهيجة على نصب تمثال له فقط ؟

على كل حال ، اننا ننتظر ونأمل أن تتشكل لجنة من المعجبين بشعره من الأدباء لتدوين تاريخ حياته ، لأنه والحق يقال ، قد كون فى حياته فصلا كاملاً لحياة العراق فى ملتقى عصرين مهمين من حياة البشرية

(بغداد) عبد الوهاب الأمين

(١) راجع فصل « اللذة والألم » فى كتاب مطالعات فى الكتب والحياة للاستاذ عباس محمود العقاد

(١) فى هذا الكلام نظر ؛ فان الزهاوى كان حريصاً على أن يساير شعره باطراد نزعات العصر . وقد جرؤ على أن يقول ما لم يقله شيخ ولا شاب . وللرسالة رأى فيه ستنشره عما قليل (الرسالة)

الحياة الأدبية فى فلسطين

للسيد محمد تقى الدين النبهانى

مدارس الأدب فى فلسطين مدرستان . مدرسة الشيوخ ومدرسة الشباب . ولا تستطيع وإن أجهدت نفسك أن تعثر بثالثة اللهم الا أثفية سفعاء . وهذا التقسيم قد يكون طبعياً بل قد يكون عاما لا يمتاز بهقطر ولا تستأثر به بلد ؛ غير أنه فى فلسطين غيره فى سواها ؛ فأدب الشيوخ فى أكثر الأقطار مطبوع بطابع المحافظة على القديم حتى لدى المجددين منهم ، وأدب الشباب كلف بالجديد حتى لدى المتدلين من هؤلاء . واليك مصر زعيمة الأدب العربى تكاد تخضع لهذا المبدأ بالقوة إن لم يكن بالفعل ؛ فالزيات وطه حسين وهما من دعاة التجديد لا تقرأ لهما لغة ولا تمر بفكرة حتى تقرأ ما بين السطور المحافظة على التراث القديم . أما فلسطين فأدباؤها الشيوخ مشتجرون وأدباؤها الشباب منشقون ، ولا تستطيع أن تلمس فرجة تتاح لك منها فرصة التوفيق ، وإنه ليهون عليك أن تجد بعض الجامع بين الشيوخ والشباب ويعتاص عليك التوفيق بين رأى الشيوخ أو رأى الشباب . ولعل ذلك ناجم عن جزئوبة هذا الأدب وأن نهضته أسست على التقليد من غير أن تكون ملكة الاستقلال والنقد بارزة تميز صائب الرأى وتنفث خطله

ترى طائفة من الشيوخ أن الأدب فى رفض هذا النحو المألوف لدى العرب فى دراسة الأدب من إلمام بالقواعد ودراسة لجيد النثر ورصين الشعر ، وتذهب إلى أن كتب النحو وأسفار البلاغة من أمثال كتب الجرجانى والقزوينى حتى اليازجى وأسفار ابن هشام وابن مالك حتى الشرتونى والجارم يجب أن تحرق وينبغى أن تمحى ، وأن هذا الشعر وتلك الخطب التى قرضها أمثال حبيب ودبجها زملاء زياد لا يجوز أن نجعلها ثقاف أدب لعقول الأدباء ، وان لغة الصحف والكلام العادى الذى يكتب بعيداً عن الفن نائياً عن مقياس الأدب القديم هو التأدب الحق فكفى المرء أديباً أن يقرأ حتى لو أخطأ رفع المبتدأ ونصب الحال مادام هو أو السامع قد فقه مغزى ما يريد . ويرضى من الكاتب أن يخط حروف الهجاء بكلمات تبين عن المعنى ولو مجملا حتى يضحى بعد مدة كل عربى قادراً أن يفهم الأدب اذا ما قدر أن يتلو الكلمة بعد معرفته ربط الحروف . وهذا رأى ينادى على نفسه بالخطل ويجعل القارىء فى شك من عقل صاحبه أو حسن نيته . ومن المؤسف أن نقول إن من القائلين به مفتشين فى المعارف وطائفة فى أيديها أمر اللغة العربية فى المدارس ، ولا نود ذكر الأسماء لأننا نخشى أن يظن ذلك منا هجاء

وتزعم طائفة أخرى أن الأدب فى التضلع من غرائب الكلم من مثل مبرنشق ومصمئل ، وأن من لم يحط علماً بذلك ويستوى على شعر تأبط شراً وذى الرمة ويستظهر خطب المأمون الجارثى ومقامات الحريرى لا يسمى أديبا

هذان رأيان من آراء الشيوخ وهما متناقضان ، فى أحدهما الهدم ، وفى الآخر الجمود ، لاتقوم بهما نهضة ، ولا يؤمل منهما إصلاح ، لولا أن هناك طائفة ترى وجوب السير فى نهج القديم والاستضاءة بضوء الحديث كرأى جمهرة الأدباء الذين أخذوا على عاتقهم حمل مشعل الأدب . وهذه الطائفة لها أثرها ولها أنصارها ، منها ذوو الطرابيش وأصحاب العمائم . غير أنه على غبطتنا بالطائفة الأخيرة ومقتنا للطائفة الأولى نقول: إن هذه الطائفة المتـــدلة تقصر عملها وتحصر نهضتها فى غرف الدرس وحلقات السمر ، لم تخرج بعد ثمرة ولم تقم بمجهود ، وأن الاكثار انمــا هو لأولئك الهدامين ، يكتبون ويتحدثون عما يرون بمــا لا يكاد يصح أن يسمى لغة عربية ، ولا يكادون يقيمون لسانهم لحناً اذا ما تحدثوا دقيقة أو دقيقتين ، ولكنهم على ذلك مكثرون وعاملون ما سمحت لهم المقادير

وطائفة الغريب منتجة غير أنه قليل ، وعلى قلته لايجد رواجا ولا ينفق الا فى سوق الراسخين

أما الشباب ففرقتان : فرقة كان موطن ثقافتها مصر ، وفرقة رضعت لبان الأدب فى فلسطين ولبنان ، وبذلك تباينت عقليتهما وانشقت آراؤها

فالذين تثقفوا فى مصر يرون أن خير طريق لانهاض الأدب هى الطريق التى تسير فيها جمهرة أدباء مصر ، وهى أن تربية ملكة

الأدب فى دراسة نصوصه ونقد هذه النصوص وبحثها على المقياس الذى وضعه أولئك العلماء الذين أشفقوا على اللغة أن تضيع وخشوا فسادها على ضوء ما يجد من الآراء الصائبة وما يشرق من طرق البحث الأدبى المتنوعة . ولذلك تجد هؤلاء يتقلبون بين صفحات الأسفار ويأرقون لتحبير الرسائل والكلمات وينتقلون بين المدن والدساكر ، يستملحون البيت من الشعر ، ويهشون للفقرة من النثر ، ويهتزون طرباً لرؤية كتاب حديث يلتهمونه التهاماً ، ثم يوسعونه نقداً ، ويفتقون ما يصح من رأى حصيف . وهؤلاء هم الذين يجاهدون فى النهضة ويضمون أنفسهم حراس الأدب . يحيطون علماً بسيره فى سائر الأقطار ويستلئمون لرد غارة دعى ، وصد هجمة متطفل على الأدب يكيد له . ومهما لاقوا من عنت ووجدوا من قسوة ، لا يأبهوا لما يكون حتى من أشد الشظف ، ويؤيدهم فى ذلك جمهرة من إخوانهم الذين تثقفوا فى لبنان ، وإن كان يكون بينهم نزر الخلاف

أما الفرقة الأخرى فهى تقصر الأدب على رقيق الغزل وبارع الخيال فى الكلم ، وما يدبج من مقالات الصحف السيارة . حتى ليعدون رئيس تحرير جريدة أديباً إذا ما أنشأ كلمة فى علاج شؤون البلاد ؛ وهؤلاء يريحون أنفسهم من عناء الدرس ، اللهم إلا فى كتاب حديث أو جريدة يومية ، أو مجلة فكاهية ، وجل مجهودهم قصيدة غزلية أو مقالة اجتماعية ينشرونها فى نهر جريدة ما . وهؤلاء لا نشك فى عقائهم ولا نرتاب فى نيتهم ، وإنما ننقد رأيهم وندعى أن الميل الى الراحة ومتابعة الأهواء والجرى وراء غرائزهم هو الذى حدا بهم أن يسيروا فى هذا النحو ، وأن يعتنقوا هذا المبدأ ، ولعلهم بعد يؤوبون إلى الحق أثناء سيرهم فى قافلة النهضة السائرة ، وانه وان كثر أنصارهم باتخاذهم أصحاب الصحف أصدقاء ، وباهتبالهم فرصة هذه الصداقة لجعلها بوقاً لهم يرضون به غرورهم وينشرون رأيهم ؛ فهم أمام قوة الأدب الصحيح يضعفون ويضمحل معين أدبهم فانه سينضب ، وحينذاك يعلمون حق العلم انهم كانوا فى وادى الضلال يعمهون ، ومن ملح أجاج كانوا يشربون ويسقون

ولا يعجبن القارىء من عرض هذه الصورة ولا يدهش لهذا الاضطراب فى الحياة الأدبية فان المقادير تضافرت على خلق هذا الاضطراب ، وإن اختلاف السياسة خلق هذا التباين . ففلسطين كان أدبها معدوماً وكان أدباؤها غير مخلوقين قبل سنين ، فالأتراك كانوا يتآمرون على الأدب العربى حتى فى مصر ، فما بال فى فلسطين ؟ والأزهر كان حرباً على الأدب ذاك الوقت وخاصة الأغراب ، وجامعات مصر كانت تقفل أمام الفلسطينيين ، والحر العامة كان لها أكبر الأثر ففتحت البلاد عينها على بقية القدماء وجمهرة من الدخلاء ، ثم أصبحت فلسطين منتدباً عليه أو مستعمرة ، وقام على شؤون التأديب غرباء عن الأدب ، فكان ذ الركود ووجد ذاك السكون فى أوائل العقد الرابع من الق الرابع عشر الهجرى إلى أن فتحت جامعات مصر على مصراع لأبناء فلسطين واتجه الأزهر يعنى بالأدب ليتاح له تأدية رسالت وحضنت لبنان أبناء هذا البلد فرجعت جمهرة من الشبا اصطدمت بالقدماء واصطدم بعضهم ببعض فكان هذا الاضطرا وكانت هذه الحياة الأدبية المضطربة التى أظهرنا لك صورة مصغ ذاتية من الحقيقة وإن كانت المقادير لم تسمح بأن تكون هـ الصورة أقرب إلى الحقيقة وأوضح مما قدمنا

. . . بيد أن هذا الاضطراب والاحتكاك يلمع ببرق أمل ؛ النهضة الأدبية ويبشر بانتظام حياة أدبية يجهد الشباب لايجاد ويستميلون معتدلى الشيوخ وأنضجهم آراء ، وما هى إلا لمحة حت تتغير الحياة غير الحياة وتزهر رياض الأدب فى هذه البلاد العرب وتؤتى أكلها ثمراً شهياً

(حيفا) محمد تقى الدين النبهانى

شكوى الى الله

وداع . . .

هذه خطبة معلم فرقوا بينه وبين أولاده فودعهم بها وودعوه وبكاهم ، وإني لآسف أن يكون في صاحبنا المعلم الأديب هذا الضعف وهو يدعو إلى أدب القوة ، ولكن ما ذا يصنع ؟ أليس له قلب ؟ أليس بإنسان ؟ . . .

أولادي !

انتظروا ! لا تخرجوا كتبكم ، ولا تفتحوا دفاتركم ، فما جئت لألقي عليكم درساً ، وإنما جئت لأودعكم . إن الوداع صعب يا أولادي لأنه أول الفراق ، وما آلام الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق : فالموت فراق الحياة ، والثكل فراق الولد ، والغربة فراق الوطن ، والفقر فراق المال ، والمرض فراق الصحة . . .

إن الوداع صعب ولو الى الغد ، فكيف إن كان المودَّع صديقاً عزيزاً ، فكيف إن كان ولداً ، فكيف إن كانوا أولاداً ؟

أنتم أولادي ، أولادي حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء ، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال ، ولكن تنطق بها كل جارحة في ، وأحسها من أعماق قلبي !

ولم لا ؟ ألستم تحبونني وأحبكم ؟ ألم أفكر فيكم دائماً وأخاف عليكم ؟ ألم تروني آلم إذا تألم أحدكم ، وأثور إذا تعدى أحد عليكم ؟ ألم أفتح لكم قلبي حتى اطمأننتم إلي وأنستم بي ، وخرقتم حجاب الخوف الذي كان بيني وبينكم ، كما يكون بين كل معلم وتلاميذه ، وغدوتم تدعونني لأشارككم في ألعابكم ، وتقصون علي أخباركم وتبثونني أحزانكم ، وتنبئونني بأسراركم ، وتشكون الى مايصيبكم من آبائكم وأهليكم ؟ فأي صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة ، وأي سبب أقوى من هذا السبب ؟

أنتم أولادي . فهل رأيتم أباً يودّع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه ؟ لقد شغلتم نفسي زماناً ، وأخذتم عليّ مسالكي في الحياة ، فلا أرى غيركم ولا أفكر إلا فيكم ، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة ، عن الصداقة الكاذبة ، والود المدخول

فكيف أقدر أن أملك نفسي وأنا أقوم بينكم لألقي عليكم كلماتي الأخيرة ، ثم أمضي لطيتي لا أدري أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبداً ؟ . . .

أما أنتم فاملكوا أنفسكم — لا تحزنوا ولا تأسفوا ولا تبكوا لأني علمتكم كيف تكونون في طفولتكم أكثر منا في شبابنا رجولة وصبرا — ونشأتكم على القوة التي فقدناها ، والبعد عن العاطفة التي ربينا عليها ، وإنكار الألم الذي لا نزال نهرب منه ، والمغامرة التي نكرهها ونجهلها لأرى صبركم في مثل هذا اليوم

انكم الآن تجتمعون حولي ، ولكنكم ستتفرقون في المستقبل ، وستنتثرون على درجات السلم الاجتماعي نثراً ، وسيكون منكم الغني والفقير ، والكبير والصغير ، والتاجر والصانع ، والموظف الكبير ، والمدير والوزير . ولكن قلبي سيتبعكم ، وحياتي ستمتد فيكم ، ومبادئي ستبقى في قلوبكم ، لا تستطيعون أن تتناسوها ، وكلماتي سترن في آذانكم لا تقدرون أن تتغافلوا عنها ، وستسمعونها تدعوكم باسم الواجب في ساعات الهوى ، وباسم الحق في جولة الباطل ، وباسم الفضيلة في غمار اللذة . فطوبى لمن لبّى وسمع واستجاب ، وويل لمن نسي وأنكر وأعرض واستكبر !

إنني لقنتكم مبادئ الحق والفضيلة ولكنكم ستجدون في تطبيقها عناء كبيراً ؛ ستجدون أول خصومها معليكم في المدرسة وأهلكم في البيت ورفاقكم في الطريق ، فالسعيد السعيد من ثبت على الحق ، وأوذي في سبيله ؛ والبطل من درأ بصدره السهام عن أمته ، وأطفأ بدمه النار التي تحرق وطنه . ان في أمتكم طاعوناً أخلاقياً مروعا أصيبت به منذ خمسمائة سنة فذلت واستكانت ، وفقدت عزتها وصبرها وقوتها ، وقد جاء الوقت الذي تبرأ فيه الأمة . انها لن تبرأ إلا على أيديكم . . .

لقد دللتكم على الطريق ، ووضعت في أيديكم مفتاح النجاح ، فعلمتكم فضائلي كلها مع ما عرفت من فضائل ، وجنبتكم نقائصي كلها مع ما عرفت من نقائص ، فاحترمتكم لتحترموني ، وأخطأت أمامكم لتردوني ، ورجعت عن خطئي لتتعلموا مني ، وأنصفتكم من نفسي لتنصفوا الناس من نفوسكم ، وعلمتكم معارضتي إذا جرت لتتعلموا المعارضة لكل جائر ، ولم آت

فى ذلك بدعا . فهذه مبادئ الاسلام الذى علمتكم اتباع سبيله ، والوقوف عند أمره ونهيه والفخر به ، والجهر باتباع شعائره ، وربيتكم على الطاعة فى غير ذل ، والعزة فى غير كبر ، والتعاون على الخير ، والثبات على الحق ، والقوة فى غير ظلم ؛ والنظام الكامل من غير أن يفقدكم النظام شخصياتكم واستقلالكم

كنت أذكر ما كنت أستاء منه فى المدرسة مما كان يصنع معنا معلمنا ، فلا أصنع معكم منه شيئا : كنا نفر من المدرسة لأننا لا نجد فيها إلا جباراً عاتيا ، عبوس الوجه ، قوى الصوت ، بذىء الكلمات ، فجعلتكم تحبون المدرسة لأنكم تلقون فيها أباً باسماً شفيقاً يحبكم ويشفق عليكم ، ويحرص على رضاكم كما يحرص على نفعكم

وكنا نكره الدرس لأننا نجده شيئاً غريبا ، وطلاسم لا نفهمها ولا ندرك صلتها بالحياة ، ونعاقب على إهماله ، ونجازى على الخطأ فيه ، فجعلتكم تحبون الدرس لأنكم ترونه سهلاً سائغا ، تدركون صلته بحياتكم ، وفائدته لكم ، وتحفظونه لأنه لازم ومفيد لا خوفاً من العقاب ولا هرباً من الجزاء

وكنا ننتظر المساء لننجو من المدرسة ، لأننا نسجن فيها سجنا ، لا نستطيع أن نميل أو نتلفت أو نتكلم ، ولا نسمع من الأستاذ إلا عبارة الدرس المبهمة وألفاظ الشتائم المؤلمة . فجعلتكم تكرهون المساء لأنه يفصلكم عن المدرسة التى تقولون فيها ما شئتم من طيب القول ، وتفعلون ما أردتم من صالح العمل ، وتقرأون مازلتم نشيطين للقراءة ، فاذا مللتم من الدرس سمعتم قصة لطيفة ، ونكتة حلوة ، هى أيضاً درس من الدروس ، ووجدتمونى أحادثكم كما أحادث الرجال لا الأطفال . كنا نشعر بأننا أذلاء فى المدرسة لأننا لا نقدر أن ندافع عن حقنا ، أو نطالب بما لنا ، وإذا قلنا كلة فالعصا نازلة على رءوسنا ، أو رددنا على المعلم لفظة ، فالبلاء مستقر على عواتقنا ، فجعلتكم أعزة أحرارا ، تدافعون عن حقكم ، وتطالبون بما لكم ، ولكن بأدب واحترام ، واتباع لقوانين المجتمع وأنظمة المدرسة ...

* * *

أتذكرون يوم جئتكم كيف كان أكثركم يأتى إلى المدرسة بادية أفخاذه ، مرجلاً شعره ، فى جيبه مشطه ومرآته ، وكمّته (بيريه) على رأسه . تفخرون برقتكم ، وتعتزون بجمالكم ، وتتخلعون فى مشيتكم ، ولا تجدون من معلميكم إلا إقرار ما تفعلون ، واستحسان ما تأتون ، لا تربطكم بالاسلام إلا رابطة الاسم ، ولا بالعروبة إلا صلة الجنسية ، ولا تعرفون من تاريخكم ما تعرفون من تاريخ الحثيين والآراميين الذى قرأتموه مفصلاً قبل أن تدرسوا سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن تعلموا من هو أبو بكر ، وقبل أن تسمعوا باسم معاوية . فعلمتكم أن فخر الرجل بقوته وعلمه ، واعتزازه بدينه ولغته . فاشتدت أعصابكم ، وقويت نفوسكم ، وتنبهت عزائمكم وصرتم تمشون كالأسود ، وتلعبون كالعفاريت . وتطالعون كالعلماء وتفكرون كالفلاسفة ، وتراقبون الله كالصديقين ، وصرتم وأنتم فى هذه السن تهيئون محاضرة فى عشرين صفحة عن عمرو بن العاص ، أو عبد الملك ، أو عبد الرحمن الناصر ، وسمعتم أن فى الدنيا علوماً اسلامية ، واستقر فى نفوسكم أن هذه العلوم وهذه الحضارة وهذا المجد ، لا بد لها من بعث كالبعث الأوربى (الرينسانس)

ولكنكم لا تستطيعون يا أولادى أن تفهموا التضحية التى قدمتها من أجلكم . لأنكم لم تعرفوا قبلى هذا الطراز من المعلمين ، فحسبى أن أخبركم أنى أشتغل بالأدب . أعنى أن لى نفساً تشعر وتحس ، وتألم وتسر ، وتغضب وترضى ، وتثور وتهدأ ، وتأمل وتقنط ، وأن لى غاية فى الحياة أكبر من هذه الوظيفة . وأننى أهم بأشياء غير صفارة الناوب ، وعصا التأديب ، وحفظ النكات الباردة لتقطيع الوقت بها ، ولف رجل على رجل فى عظمة جوفاء لانتظار الدرس . . .

ذلك أننى أغدو إلى المدرسة كل يوم وفى نفسى عشرات من الصور والأفكار ، أبنى منها هياكل فخمة لآثارى الأدبية القيمة التى لم أكتب منها شيئاً بعد فاذا بلغت المدرسة ونشقت هذا الهواء الملىء بجراثيم البلادة والخمول ، طار من رأسى كل شىء ، وأحسست أنى غدوت حقيقة معلماً أوليا

أجل . لقد ضحيت من أجلكم بفكرى ونفسى . . فخسرتهما من أجلكم ، وهأنذا أخسركم أنتم أيضاً

إنكم لا تعلمون أى فراغ سيدع فى نفسى فراقكم ،

وتحسبون معلمكم واحداً من هؤلاء البشر الآليين الذين يذهبون ويجيئون ويعملون ويتركون ، ولكن بلا قلوب ، فسأقص عليكم قصة وقعت لى منذ أسبوع :

كان اليوم عطلة وكنت أرقبه من زمن بعيد لأستريح فيه من هذا العناء الذى هدّنى هدّاً وطمس بصيرتى ، وبلغ بى إلى الحضيض الفكرى ، فلما أصبحت عمدت إلى المطالعة فلم أفهم شيئاً ، ووجدت شيئاً يدفعنى إلى الخروج ، فارتديت ثيابى وأنا لا أدرى أين أقصد ، فاذا أنا أمشى فى الطرقات التى أمشى فيها كل يوم . وإذا رجلاى تقودانى إلى المرجة حيث ركبت السيارة إلى حىّ البفح (المهاجرين)[1] إلى باب المدرسة . هنالك انتبهت ، وعدت إلى نفسى ، فاذا أنا لم أقدر أن أعيش يوماً واحداً بعيداً عنكم ، وإذا صوركم وبسماتكم الحلوة ، وشيطنتكم البريئة ، وصداقتكم الخالصة ، وأصابعكم الممدودة للسؤال قيد بصرى حيثما ذهبت !

ولكن لا عليكم منى يا أبنائى ، لا تفكروا فىّ ولا تحملوا همّى ، بل فكروا دائماً فى مبادئ علمتكم إياها ، واذكروا فى المستقبل أنى كنت أستاذكم ، وأنكم أحببتمونى وأحببتكم ، ولا تحقدوا علىّ أنى كنت أحياناً أقسو عليكم أو أعاقبكم ، فانما كان ذلك لفائدتكم

وبعد . فقوموا يا أولادى ، ودّعوا أباكم الذى لن تلقوه بعد اليوم ....

***

وخرج صاحبى من المدرسة ، مهدود الجسم ، خائر القوى ، فألقى عليها النظرة الأخيرة . فرآها من خلال دموعه ، مشرقة بهية ، كأنها ماسة تلمع فى شعاع الشمس ، ثم ولّى ... يفكر تفكيراً مضطرباً

***

هذه هى حياة المعلم ؛ يغرس غصون الحب فى قلبه فتمزقه بجذورها ، فاذا أزهرت جاءوا فنزعوها من قلبه ، فمزقوه مرة ثانية بنزعها : يأخذ المعلم أولاداً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، فلا يزال يجهد فيهم ، ليفهم طبائعهم ، ويألفهم ويحبهم ؛ ويقوّم اعوجاجهم ويصلح فاسدهم ، حتى إذا أثمر الحب الفائدة وأتى العطف بالمنفعة ، جاء ولاة الأمور فقطعوا بجرّة قلم واحدة هذه الأسباب كلها . وفرقوا بنقطة من حبر بين الأب وأولاده ، لا لشىء . بل لوشاية سافلة أو مؤامرة دنيئة ، أو لاخلاء مكانه ليبوّأه بعض الملتمسين من ذوى الوساطات

وانطلق صاحبنا يهمس فى أذن نفسه :

إنى أشعر بالانحطاط والضعف ، وأحسّ كأنى شمعة قد انطفأت ، لم يكف أنهم أضاعونى وألقونى فى هذا الطرق حتى جعلونى أسبح فيه ، ثم أغوص إلى أعماقه ، بينما يمرح الأدعياء واللصوص بالعيون الصافية ويقطفون وردها وزهرها !

لم يبق لى أمل ... لقد سقطت فى المعركة قبل أن أنال ظفراً ، لقد بعت نفسى ومستقبلى وآمالى بتسعة جنيهات فى الشهر ثمناً لخبز عيالى ... أفكان حراماً أن أجدها من غير هذا الطريق ، ألم يكن بد من أن أموت لأعيش ؟ ..

استغفرك اللهم . فلا اعتراض ولا انتقاد ، ولكنها هى شكوى . أفيخسر المرء ماله فيشكو ، ويفقد حبيبه فيبكى ، ويرى آماله تنهار أمام عينيه ونفسه تذوب وحياته تنضب ومواهبه تذوى ولا يقول شيئاً ؟

إنى أشكو ، ولكن إلى الله ؛ فليس فى الناس من يشكى اليه !

(دمشق) (ع)

[1] كذلك كانت تسمى الصالحية قديماً

الألم ...

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

> لست أسطيع أن أغير طبعي
> يخلق الطبع مكرهاً يوم تخلق

أَنَا فى عُزْلَتِي يُطِيفُ بِيَ الرُّعْـ
ـبُ فَأَبْكِي مِنْ طُولِ شَجْوِي وَأَفْرَق

تَعْتَرِينِي الهُمُومُ فالطَّرْفُ حَيْرَا   نُ مُنَدًّى مِنَ الدُّمُوعِ مُؤَرَّق
وَجَنَانِي وَلْهَانُ يُرْمِضُهُ الحُـــبُّ وَيَذْكُو بِهِ الجَوَى إِنْ تَشَوَّق
تَتَرَاءَى لِيَ الحَيَــاةُ قَتَامًا   مَا بِهَا مَسْرِبٌ يَبِينُ فَيُطْرَق
يَلُوحُ الوُجُودُ قَفْرًا يَبَابًا   عَجَّ فى سَاحِهِ العَفَاءُ وَأَطْبَق
صُوَرٌ مِنْ كَآبَتِي لَيْسَ تُمْحَى   أَنَا مِنْهَا مُشَتَّتُ النَّفْسِ مُصْعَق
مِنْ شُجُونِي أَنِّي أَرَى الوَهْمَ يَحْيَا   وَلَقَدْ صَاغَهُ خَيَالِي وَنَمَّق
لِي عَذَابُ اثْنَتَيْنِ نَفْسِي الَّتِي تَشْـ   ـقَى وَنَفْسِي الَّتِي أُحِبُّ وَأَعْشَق
عِشْتُ مِنْ طُولِ حَسْرَتِي أَتَشَكَّى   مِثْلَمَا يَشْتَكِي الحَمَامُ المُطَوَّق
ضَاعَ عُمْرِي كَمَا تَضِيعُ اليَنَابِيـ   ـعُ وَتَخْفَى أَمْوَاهُهَا وَتُغَلَّق
وَانْطَوَى مِثْلَمَا تَمُرُّ الضَّبَابَا   تُ وَيَفْنَى خَيَالُهَا وَيُمَزَّق

* * *

أَيُّهَا اللَّائِمِي أَتَلْحُو المَقَادِيـ   ـرَ وَتَهْجُو الدَّهْرَ الَّذِي لَيْسَ يَرْفَق
هُوَ جُرْحِي عَرَفْتُ كَيْفَ أُدَارِيـ   ـهِ وَأَحْنُو عَلَيْهِ عُمْرِي وَأُشْفِق
لَسْتُ أَسْطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَ طَبْعِي   يُخْلَقُ الطَّبْعُ مُكْرَهًا يَوْمَ تُخْلَق
أَنَا قِيثَارَةٌ تَنُوحُ عَلَى الدَّهْـ   ـرِ وَدَمْعٌ عَلَى المَدَى يَتَرَقْرَق
أَنَا لَحْنٌ مُضَرَّجٌ بِالمَآسِي   كَادَتِ النَّفْسُ مِنْ تَشَكِّيهِ تَزْهَق
هُوَ فى الصَّدْرِ لَاعِجٌ يَتَنَزَّى   وَهْوَ فى الفِكْرِ جَدْوَلٌ يَتَدَفَّق

* * *

يَا رَجَائِي يَا بَسْمَةَ الزَّهْرِ النَّضْـ   ـرِ وَيَا رَوْعَةَ النَّشِيدِ المُرَقَّق
أَنْتَ دُنْيَايَ أَسْتَرِيحُ إِلَيْهَا   كُلَّمَا طَافَ بِي الشَّقَاءُ وَأَحْدَق
طَيْفُكَ الحُلْوُ زَارَنِي فى ذُهُولِي   فَارْتَوَتْ مُهْجَتِي وَعُمْرِيَ أَوْرَق
وَتَطَلَّعْتُ لِلْخُلُودِ أُنَاجِي   مَلَكًا فى مَعَارِجِ الغَيْبِ حَلَّق
الأَسَى دَمْعَةُ الحَنَانِ عَلَى الأَرْ   ضِ وَكَنْزٌ مِنَ المَرَاحِمِ مُطْلَق
تَتَسَامَى الأَرْوَاحُ فِيهِ إِلَى اللَّـ   ـهِ وَتَنْدَى مِنَ الطُّيُوبِ وَتَعْبَق
البَلَاغَاتُ سَطْعَةٌ مِنْ سَنَاهُ   وَالفَصَاحَاتُ نَفْحَةٌ مِنْهُ تُنْشَق
وَالغَمَامَاتُ رَجْفَةٌ مِنْ رُؤَاهُ   وَالخِضَمَّاتُ قَطْرَةٌ مِنْهُ تُهْرَق
نَهَرٌ لِلْبُكَاءِ سَالَ عَلَى السُّحْـ   ـبِ وَوَشَّى الأُفْقَ البَعِيدَ وَزَوَّق
تَسْتَحِمُّ النُّفُوسُ فِيهِ مِنَ الإِثْـ   ـمِ وَتَنْقَى مِنَ العُيُوبِ وَتَأْلَق
يَدْرُجُ الحُبُّ فى حِمَاهُ عَنِيفًا   نَاصِعًا كَالضِّيَاءِ إِنْ هُوَ أَشْرَق
كُلُّ عَهْدٍ لَمْ يَنْتَظِمْهُ مُضَاعٌ   كُلُّ وُدٍّ لَمْ يَعْتَمِدْهُ مُفَرَّق

أنور العطار

عبرة الموت

جميل صدقي الزهاوي

بقلم عبد السلام رستم

يأيها المسلوب من أنسه   مصفد الجسم الى رمسه
وتارك الدنيــا على حالها   لم تصدق العائف[1] فى حدسه
فى الموت لو فكر مستعبر   فيما يصيب الحى من مسه
تشابه النــاعم فى لهوه   بالعابد الطوّاف فى حبسه
وبات من يجمع أمواله   كالمعدم المحروم فى بؤسه
تلاحق الآتى بمن قبله   وتابع اليوم خطى أمسه
فما ينال المرء من حظه   الا بريق النور من شمسه
يشب مشغوفاً بإغراسه   وليس يدرى منتهى غرسه
ويخطب الدنيا ، وقد شاقه   ما يفتن الناظر من عرسه
ويرشف الكأس على نهله   والموت — لو يعلم — فى كأسه

* * *

يا شاعرا ظل مدى عمره   فى حيرة المشدوه أو يأسه
يسائل المجهول عن أمره   وينظم الشعر صدى نفسه
ما ذا أفاد الحس فى عالم   لا يدرك المعنىّ من حسه
الكون ما انفك بأوزاره   يفترف الأحياء من رجسه

(١) العائف : المتكهن بالطير

د غلب الطبع على خلقهم   ومرجع الشىء إلى جنسه
كلهم فى عيشه ناسج   ثوباً يقيم الدهر فى لبسه
والموت من خلفهم دائب   يسدد النبل الى نكسه
كم عجز الباحث عن كنهه   وإن أطال الفكر فى درسه
فدونك الحق الذى تبتغى   وخل عنك الروح فى قدسه

(القاهرة)   عبد السلام رستم

سهرة ابريل

الشاعر والربيع

بقلم محمد رشاد راضى

الشاعر :

طير الربيع أعدت ذكرى بلبلى
أأراه فى فرح الربيع المقبل

قذف الحسام فكان مقبضه على   شفتى وآخر حده فى مقتلى
ومضى كما يمضى السحاب كأنه   ظِلٌّ الغريب وهدأة المتأمل
أجتاز أنواء العواصف تائها   ويروح يرفل فى الغلائل والحلى
الأرجوان العذب فى وجناته   ظللته بخيالىَ المتهلل
رقرقت فى عينيه بارق أنجم   يهدى فكانَ لحيرتى كمضلل
حلو كما احلولت طفولة ناهد   طلق طلاقة بسمة لمقبل
شرب السماء جميعها بعيونه   ورمى بقيّتها لماء الجدول
يمشى فيخضرُّ الثرى من خطوه   وتذوب أحجار الجديب الممحل

الربيع :

نهب الكون ابتسامى   إنه فى كل ثغر
ونجومى البيض رقت   فى الثنايا مثل درّ
وكراكىّ وطيرى   رفرفت فى كل صدر
الصبا الصارخ يسرى   فى الدم القانى ويجرى

* * *

إن وردى يا أميرى   صبغةٌ من شفتيها
وغديرى عبرات   هربت من مقلتيها
وحياة الحب والفتنة   رسم من يديها
أوحت الدنيا إلى الله فأهداها اليها ...!

* * *

هى حلم لا يراه الـ   ـمرء حتى فى الكرى
هى كأس دون خمر   هى خمر قد جرى
هى أحيتنى فجئت الـ   ـيوم كى أحيى الورى
إن نور الشمس من أعـ   ـينها السود سرى

* * *

جمع الخالق حسن الأ   رض فيها يا هزار
فلك الدنيا تراه   كلما دارت يُدار
هى فى النور ظلام   وهى فى الليل نهار
هى ماء أيها الشا   عر كم يحرق نار!

* * *

أرسلتنى اليوم يا صد   احٍ كى آتى إليكا
أرسلتنى بدلا منـ   ـها لأروى شفتيكا
كلما ترنو إلى مر   آتها أبدو لديكا ...!!
إننى لوحتها تعـ   ـرضها اليوم عليكا
إرسم اللوحة واحفر   ها على لوح الخلود
هأنا صورتها المذ   راء أنوار الوجود
خذ من الصورة أعلى الـ   ـفن والحسن الفريد
وأتم الرسم منها   فهى يوماً ستعود ...!

الشاعر :

كلما سرت يا ربيع النور   أتهادى من جدول لغدير
كخيال يطوف بين القبور   خلت أن الشذى ومرج الزهور
هو للكون ليس لى أنا وحدى
هو ظلٌّ منها يزيد شجونى   إن كأس السراب لا ترويني
ولهذا يلجُّ عصف جنونى   أنا أبغى الدنيا وإن تك دونى
لا بساطا يناله كل فرد .....!
أنا أبغى عيناً ترى بعيونى   أنا أبغى قلباً يدين بدينى
أنا أبغى بلهفة وجنون   أن تكون الحياة ملك يمينى
ما انتفاعى بالطيف والطيف عندى ..؟!

استدراك

ذكر سهواً فى مقال الأستاذ عبد الحميد العبادى المنشور بالعدد الممتاز أن زوج زينب بنت النبى (ص) هو سعد بن الربيع ، والصحيح أنه « أبو العاص بن الربيع »

القصص

دراستان من اسخيلوس

ليلة فى الفردوس (١)

« وإلى الأبد فى جهنم ! »

آخرة المتضرعات

للأستاذ دريني خشبة

خلاصة الدرامة الأولى

كان لأيجبتوس ، أمير مصر السفلى ، خمسون ابناً ، وكان لأخيه دانوس خمسون ابنة ، وكان الزواج من بنات العم فى ذلك الزمن محرما بل كان يعد نوعاً من الزنى ؛ وبالرغم من هذا أراد إيجبتوس أن يزوج أبناءه من بنات أخيه ، وكان هذا الأخ ، دانوس ، قد رأى فى منامه أن أحد أزواج بناته يذبحه ، فلما ذهب إلى الكهنة يستفتيهم فى هذا أكدوا له صحة الرؤيا ، ولذلك رفض ترويج بناته ، وهرب بهن على فلك إلى آرجوس ، وهناك ، فى حرم الآلهة ، لقى بيلاسجوس ملك آرجوس ، وتقدمت كبرى بناته إلى الملك تحدثه عن منشئها وما تمت به من وشائج القربى إلى آرجوس عن طريق يو حبيبة سيد الأولمب وصفيه ، وتضرعت إلى الملك أن يحميها واخواتها وأباها من ملك مصر ، وألا يردهم عليه أبدا ؛ ولم يستطع الملك أن يعدها حتى يستشير شعبه ، فهددت بأن تشنق نفسها ، هى وأخواتها فى جذوع الآلهة إن لم يفعل — وذهب الملك يحتال ليكسب أصوات شعبه وتأييده لقضيتهن — ولكن ظهرت سفينة فى البحر فى هذه الآونة ، فاذا هى مركب مصرى ، وإذا فيه جند وقائد أتوا يستردون البنات وأباهم قسراً ... وانقض الجنود على البنات ، وطفقوا يجرونهن من شعورهن لينزلوهن إلى السفينة ، وكادوا يفعلون ، لولا عودة ملك آرجوس فى آخر لحظة ، فحماهن من القائد المصرى ، واحتدم الجدال بين الملك والقائد ، حتى عد القائد أن ملك آرجوس ، بمخاشنته التى أبداها قد أعلن الحرب على مصر ... فعاد أدراجه إلى السفينة ليبلغ مولاه ...... أما البنات فنزلن فى حصن آرجوس مكرمات آمنات

— ١ —

فى فجر يوم من أيام الصيف ، انشق الأبيض المتوسط عند ساحل آرجوس ، عن أسطول لجب ماعتم أن انتشرت سفائنه فوق الماء كأنها الدّبى ، وخَشْخَشَتْ خلال أواذيّه كأنها الأساود ، ثم نفثت سمومها فوق الشاطئ جنوداً من شياطين فرعون ، مستلئمين فى الدروع ، مقنعين فى الحديد ، يلاعبون السمهريات ، ويرهفون الرقاق البيض !

وكانت آرجوس الخالدة نائمة حالمة ، غارة فى غفوة الفجر ؛ وكان الأرجيف الأشقياء غارّين كذلك ، تداعب أجفانهم الوسنى أطياف الآلهة ، وتمرح فى قلوبهم ومضات من السعادة يكاد الأولمب يمضى بها ... حين ينبلج الصباح اللماح عن فوهة بركان ... ما تلبث حتى تكون وهدة من وهاد جهنم ! ...

— ٢ —

وأطل الحراس فى شعاف الجبل ، فبهتوا ! ! وزاغت أبصارهم ! ... وأوقدوا النيران ! ... واستيقظت آرجوس عجلى ، تنظر الى الموت الفاجئ يتربص بها ، ويكاد ينقض عليها ! ......

« المصريون ! المصريون ! المصريون ! .... »

وذهبت الصيحة فى أرجاء المدينة تهز قلوب الأبطال ، وتداعب ألباب الصناديد ، وتزلزل فرائص دانوس وبيلاسجوس ! وهُرعت الجماهير إلى هيكل الآلهة تصلى وتبتهل ؛ وجمع الملك مجلس شوراه ليروْا فى ذلك الحدَثِ المدلهم رأيهم ، فأجمعوا على وجوب الدفاع عن المدينة ، وعدم تسليم ضيفهم الشيخ وعذاراه اللاجئات مهما كلفهم الذود عنهم من جهد ، ومهما طال حصار المصريين :

— « أفهذا رأيكم إذن ؟ »

— « أجل أيها الملك ! ولا رأى لنا غيره ! إن شرف آرجوس وكرامة الأرجيف معلقان بما نصنعه من أجل هؤلاء

---

(١) ليس هذا عنوان الدرامتين ولا عنوان إحداها ، ولكنا آثرناه لأن أحدا لا يجزم بصحة اسميهما ، ومؤرخو الأدب اليونانى على أن اسم الدرامة الثانية هو (مصلحات فراش النوم) أو الايجبتيون — وهى لا تعنى المصريين — والثالثة (الدانايدز)

العذارى ! لِتَغْـنَ جميعاً دونهن ، ولا يقولن أحـد فى هيلاس إننا منعناهن أولاً ، ثم أسلمناهن أخيراً ! »

— « إذن لتكن حرب ! ولندفع عن شرف آرجوليس ! »

— ٣ —

وكانت الحرب الزبون التى شابت من هولها نواصى الأراجيف ، والتى أوقفتهم هيجاؤها حيارى فى أبراجهم كاظمين !

ثم ... ... سقطت آرجوس !

وجاست خلالها شياطين فرعون ! وانطلق أبناء إيجبتوس فى عرصاتها تحف بهم أعلام النصر ، وترف فوق هاماتهم أكاليل المجد ، حتى كانوا فى هيكل المدينة الخالدة ، حيث تماثيل السادة النجب من آلهة الأولمب ... ف ... صلوا لآلهة النيل ، وشكروا لرع ... وأثنوا على أمون ، وعقروا القرابين لأزوريس ! !

ويمموا شـطر الحصن المنيف فوق رُبى آرجوس فاقتحموه على دانوس وبنات دانوس ؛ وكان أبوهن قد نصح لهن بالانصياع لما أراد القضاء : « ... فلا راد لما قُدِّر ، ولا دافع لما وقع فى صحيفة المرء ... ولنبحر يا بناتى البائسات إلى مصر ، وليكن لنا ثمة شأن غير هذا الشأن ، ولتتم المأساة ، ولتندلع النيران ، وليكن أبناء أخى أول ما تأكل من حطب ، وخير ما يلقى فيها من حصب ، وتغتذى به من أشلاء ! ! »

وظهر القادة الحسون ، أبناء إيجبتوس ، ومن حولهم الجند شاكى السلاح ، فأسقط فى يد دانوس وأرتج عليـه . واسودت الدنيا المشرقة فى عيون بناته ، وظلن متناثرات هنا وهناك فى ردهة الحصن ، ضافيةً عليهن جلاليبهن السود ، وأرديتهن الحزينة السادرة تزيدهن جمالاً على جمالهن ، وتجعل منهن ربرباً من المفاتن بدا فى هذا المرمر المترقرق فى أكفهن ووجوههن ، وأجيادهن وثديهن ، وفى هذه السيقان الناعمة التى كان يحسبها أن ترد عادية الجيش المغير ... وإن كانت الجن من ورائه ظهيراً ! !

— ٤ —

ذهل أبناء إيجبتوس ! وانقـدح شرر الهوى فى قلوبهم ، وتدفق الدم العاشق فى عروقهم حاراً ... ثم انهمرت أرواحهم الوامقة من عيونهم دموعاً سخينة ... فسجد كل منهم عند قدمى واحدة من بنات عمه ... ولبثوا لحظة لاينبسون ! ...

وحلق دانوس فى بناته وفى أبناء أخيه قليلاً ثم قال : « قِفْـن لأبناء عمكن يا فتيات ! قفن للأبطال المذاويد أبناء إيجبتوس ! رباه ! لم نجم هـذا الشر بيننا ؟ ! لقد كنت أحب أخى ، وكان أخى يحبنى ، فأى شيطان أغرى هذه العداوة بيننا ؟ ! قضاء ! ... أجل ... قضاء ... قضاء ... »

وما كاد أبناء أخيه يسمعون هـذه الكلمة المصنوعة من فم عمهم ، حتى تقاطروا اليه يقبلونه ويتمسحون به ويترضَّونه ... وظل هو يتلطف بهم ، ويهش لهم ، ويربت فوق أكتافهم ، وكأن شيئاً من الأحقاد التى أكلت الأفئـدة ، وأراقت الدماء لم يكن ! ...

— ٥ —

وفُزِّع عن قلوب العذارى ، ونهضن فتلقين أبناء عمهن بالبشاشة والبشر ، ثم تلطفت كبراهن فشفعت لبيلاسجوس الملك الكريم المأسور فأطلق سراحه ورد عليه عرشه وألبس تاجه ، وعقد مع الأراجيف صلح نبيل دل على جود المصريين وسماحهم

وأقلع الأسطول ، وهمت الفلك واحتواها الماء ، وانتثر فى أذيالها وشى رجراج من الثبج ، وغابت آرجوس عن الأنظار قليلاً قليلا ، حتى إذا طوى الأفق آخر شاهق من أبراجها ، أوى الأبناء الحسون إلى البنات الحسين يباسطونهن ويسامرونهن ويسَرون عنهن آثار مانزغ الشيطان بينهم وبينهن

وأقبل الليل وانجاب ، وبزغت ذكاء وتوارت بالحجاب ...

وكرت أيام ... ثم بدا الشاطىء المصرى ، وهبت نسمات الوطن وتبسمت الشمس فوق الأرض البنفسجيـة تحيى أبناءها الغزاة المنتصرين ، وأطل من قرصها الكبير ، رَعٌ الكبير ، يبارك أبطاله ويغـدق عليهم نفحاته . وخرج الشعب العظيم يهتف للجيش الظافر ، ويردد هذا النداء المحبب القديم : « المجد لمصر ! »

— ٦ —

وأقبل إيجبتوس على دانوس يلاومه ، ثم غفر له : « هذه النزغة التى أشمتت بنا الأعداء ، وأغضبت علينا أرباب السماء ، وسممت ما بيننا من محبـة وصفاء ... » واتفقا على العرس ... وذهب كل يعد له عدته !

وخلا دانوس إلى شيطانه فقال إنى معك ! !

ثم جمع إليه بناته فخطبهن خطبـة طويلة نضحها بالدمع وصهرها بنار الفؤاد ، وأودعها أحزانه وأشجانه . وذكرهن

بشرائع السماء ، ونواهي الآلهة ، والزنى البغيض الذي يستتر في هذا الزواج القهري ، لا عن نحلة ، ولا عن رضى ، ولا سلطان مبين ! ...

وذكر لهن أمهن المتوفاة وما كان بينها وبين زوجة عمهن من إحن وبغضاء ، فحرك فيهن هذا الماضي الأسود بجميع سخائمه ، وأثار في قلوبهن الرطبة أشجانهن القدامى ... حتى إذا آنس فيهن الطاعة له والائتمار بأمره . أخرج لكل منهن سكيناً مسنونة مرهفة الحدين ، تقطر المنايا من أشفارها فيردها غمدها الذهبي المرصع بأغلى الجواهر واليواقيت

— « فاذا حان الحين يافتيات ، ونامت أعين الرقباء فاذكرن شقاء كن الذي لا شقاء مثله ، واذكرن كيف قضت أمكن بغصة المداوة بينها وبين زوجة عمكن ، ثم اذكرن أباكم هذا الشيخ الفاني المتهالك كيف ذل ، وكيف وضع أنفه الأشم في الرغام ... واذكرن أخيراً أنكن تحمين شرائع السماء من هذا الاعتداء ... فالآلهة معكن ، وستضرب بأيمانكن ، وستغمد هذه الخناجر في أحشاء أعدائها بوساطتكن ... بورك فيكن وكانت السماء في عونكن ! »

— ٧ —

وأخذتْ ممفيس زُخرفها وازّينت ، وتبرجت عمائرها الفرعونية في حُلل من النُّور والنُّوار وأفواف الزهر ، وضفائر الورد والرياحين ؛ وانطلق كهنتها يرسلون في جميع الأرجاء ألسُن الند ، ونَفثة العنبر ، وشذى الكافور والصندل ، من مجامرهم الفضية المقدسة ، واجتمعت أسراب الحسان في ساحاتها وباحاتها بسيقانهن المصرية الفرعونية يتلاعبْن ويتطربن ، ويتغنيْن ويتناشدْن ، ويهزأن بعرائس الماء التي خالها قريحة هيلاس ؛ وسار ربربهن يخطر في كل حنية ، ويميس في كل ميدان ، وينساب في كل فردوس ، حتى كُن عند قصر الملك ، منزل العز ومناط المجد ، وفخر مصر وقلبها الخفاق ، فرقصن رقصات ما كان أشبهها بنبضاته ، وتغنين الأغاني كأنها تخرج من فه ، وتنبعث من جوانحه وتجلجل موسيقاها عن حناياه ... ثم شارك الشعب في الأفراح الملكية ، فمج النيل المقدس المعبود بالطوّافات والحراقات ، وهرعت عند حفافيه أمة بأسرها تفرح كما يفرح الملك ، وتسعد كما يسعد التاج ،وتنتشي بنشوة العرسين

وأقبل الليل ، وأسفر خونسو (١)

ورقصت ممفيس في لجة من خمر ، ورفرف حوريس (٢) فوق المسلات الشاخصة في الميادين ، ولم يعلم أحد أنه كان يرى غير ما ينظر الناس ، وأن عينه كانت تذرع الوادي الوادع السعيد وتكاد تضج مما أجن هذا الليل الرهيب ... لا ... بل كان الناس ينهلون أفاويق الحبور في صحراء ممفيس ... في ليبيا العجيبة ... ليبيا التي تصفر فيها الرياح ، وتتكلم فوق كثبانها ألسن الألغاز والأسرار ! ! ...

— ٨ —

وغرق القصر الملكي في أثير الموسيقى ، وفي فيض من النور الذي يشبه الفجر الكاذب ؛ ثم أخذت الركبان تنصرف والولدان تتفرق إلى مخادع اللهو ، وأخذ الكرى يعقد أجفان ممفيس الصاخبة ، التي كانت منذ هنيهة تعج بالألوف ، وتضج بالجماهير

وعادت آنة الليل ... رهيبة كشأنها منذ الأزل ...

وافتر خونسو مرة أخرى عن ابتسامة هي إلى العبوسة أدنى ، وإلى السخرية أقرب !! يا لرهبة الأقضية ! ويا لصرامة القادر !

لقد أوى أبناء إيجبتوس كل إلى مخدعه ، بعد إسراف طويل ، ولذات لم يكن يخطر على بال أحد أنها تنتهي ، وبعد قصف أيما قصف ، وخلاعات ليست كمثلها خلاعات ... فما كادت رؤوسهم تمس ديباج الطنافس حتى غطوا في سبات عميق ، وحتى انطلقت أبالسة الشر من أغماد خناجر دانوس ، التي بدت أظمأ ما تكون إلى الدماء الحارة الشابة ، تجري في عروق أبناء إيجبتوس

— ٩ —

ولقد كان أبوهن قد اتفق معهن على هذه الغدرة الصفراء ، وجعل لكل منهن علامة حين تأفد ساعة النفاذ ، أن تطفىء السُّرُجَ إلا واحداً تدعه مطلاً من إحدى الكُوى التي تواجه قاعته ، إذ كان في هذه الليلة الليلاء ضيفاً على أخيه ، وشريكه في مخدعه ، ومنتوياً هو الآخر إنفاذ الغدرة الوحشية في شقيقه ، ليخلوَ له وجه مصر ! ...

واضحكي أيتها الأقدار !! ...

(١) إله القمر عند المصريين القدماء

(٢) ابن آزوزيس وكان المصريون يحبونه حباً جماً وكانوا يرمزون له بالبازي الأشهب

— ١٠ —

وأخذت السُّرُج تومض ثم تنطفىء ، وأخذ دانوس يلحظ بكُوى ويعد : « واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... تسة ... » حتى عد تسعة وأربعين ... ووقف العد ... وأبطأ الحساب ، وتلكأ الجلاد ! ...

— « ماذا ؟ لقد ذبح الجميع أزواجهن إلا واحدة ! ... ماالذى منعها ؟ لعله لم ينم الخبيث ... ! ويلاه ! انطفئى أيتها السرج ... ولتنطفئ حيــاته فى أركن ! ... »

وذكر هو أنه لم ينفذ غدرته ، فهب الى سرير أخيه ، وأغمد خنجره فى صــدره ! ... وغادر إيجبتوس يتشحط فى دمه ... وراح يحلم بالتاج والعرش والصولجان ! . .

حلم قصير جميل ... ولـكنه نظر الى الـكوة الخمسين فوجد أضواءها تتألق ... ورأى إلى نورها يكاد يضيء ممفيس كلها ... فكاد حنقه يقضى عليه ...

— « هلمى يا غبية ! البدار الى دمه البدار ! »

ولـكن السرج تتألق وتتألق ... ولا تنطفئ منها شعلة واحدة !

— ١١ —

وقفت الفتاة الجميلة تلقاء الفتى الجميل تقبله ، بعد أن كادت تقتله ... !

أجل ...! وقفت هيبر مِنِسْترا[1] تلقاء ابن عمها لنسيوس[2] تعبده ، وقد شغفها الشاب الجميل النائم حباً ...

— « يا لأهدابه المراشة ، ويا لجبينه المشرق ، ويا لمنكبيه الجبارين ، ويا لوجهه البرىء ! أأطيع أبى ... هذا الشيخ القاسى المتحجر ... الذى لا قلب له ... الذى فرغت مآربه من الشباب ومن الحيــاة جميعاً ... وأسطو بخنجرى على هذا الشباب الذى أخلد إلى ... ونام ملء عينيه بين يدى ... وحملنى أمانته كلها ... لا وأرباب الأولمب ! لا يكون هذا أبداً ! ... إن قبلة واحدة على جبينه المتبلج خير من جنة أبى ، ومن الدنيا والآخرة جميعاً ... نم يا لنسيوس ! نم يا حبيبى ! إنى سأقف عند سريرك طول الليل أحرسك ، وسأغمد خنجرى فى صدر من تحدثه نفسه باغتيالك ولو كان أبى ! ...

(١) Hypermnestra (٢) Lynceus

— ١٢ —

ولبث دانوس يحرق الأرَّم ويلحظ السرج ... ولـكنها باقية كما هى ... لا تنطفىء ...

وانبلج الفجر ... ثم تنفس الصبح ... وأشرقت ذكاء ... وهب لنسيوس من نومه فما راعه إلا فتاته الجميلة واقفة إلى جانبه ضعيفة واهية ... تبكى ... وبيدها السكين المشحوذ يتلمظ ... ويتلمظ ... !

— « ماذا ؟ هيبر منسترا ؟! مابك واقفةً هكذا ياحبيبتى ؟! »

— « لا شىء ... أنا أحرسك ... فقط أحرسك ! ... »

— « تحرسيننى ؟ ... يا للهول ! ومم يا ابنة العم ؟ ... »

— « من ... لنسيوس !! من أبى يا أعز الناس علىّ ! ... »

— « ماذا ؟ تحرسيننى من أبيك ؟ من عمى ؟ ... »

— « أجل ... أحرسك من الغادر الذى قتل إخوتك ! ... إنهض يا لنسيوس ! خذ عليه طريقه ... أحسبه قد قتل أباك أيضاً ... البدار البدار ! ... ... ويلاه ... وى ... »

وسقطت الفتاة لا تعى ...

— ١٣ —

وانطلق لنسيوس كالمجنون فى غرفات القصر المشيد ... ونفذ إلى مخادع إخوته ... فلم ترد عليه جثثهم ... صرعى فوق ديباج العرس ... مضرجة بدم الشباب الحار ... البارد كزمهرير الموت ! ...

وصعد الدم إلى رأسه ، فهرول إلى غرفة أبيه ؛ فما راعه إلا أن رآه قد لقى حتفه كما لقى إخوته حتوفهم ... وما راعه إلا أن رأى دانوس الجبار يحملق فى الـكوة ... التى ما فتئت أضواؤها تنبعث منها ، برغم الفيض الذى ترسله الشمس ، مركب رع ... فى العالمين ...

وانقض عليه وذبحه

وجلس فوق أريكة يبكى ...

وهكذا قتل دانوس أحدُ أزواج بناته ، وصدقت الرؤيا ... لأن الآلهة لا تكذب ! !

— ١٤ —

واضطرب الأولمب[1] من هول الفاجعة ، واجتمع الأرباب

(١) لا ندرى لم لم يترك إسخيلوس عقوبة بنات دانوس لآلهــة النيل ؟ ألأنهن لا يؤمن إلا بآلهة الأولمب ؟

البريد الأدبي

العبرات الحرار

رجا الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع اللغوى الملكى بالقاهرة من قراء الرسالة الغراء فى (العدد ١٤٦) الرجوع إلى نسخة شرح ديوان الخنساء المكتوبة سنة ٦٢٠ هـ المحفوظة فى دار الكتب المصرية، لعلها تكون أوفى من نسخة مكتبته الخاصة المكتوبة سنة ١١٤٥ هـ لأن نسخته لم تذكر قصيدة «العبرات الحرار» وربما تكون ساقطة من نسخته من الشرح المذكور. ثم رجا الرجوع إلى نسخة الديوان المكتوبة بقلم العلامة اللغوى الكبير الشنقيطى التركزى وذلك للاستيثاق من صحة رواية البيت:

من كان يوماً باكياً سيداً   فليبكه بالعبرات الحرار

لأنه يحتمل احتمالاً قوياً أن يد التحريف عملت فى البيت عملها فغيرت «الجوار» إلى «الحرار». وإجابة لرجاء شيخنا المغربى رجعت إلى نسخة الشرح التى فى دار الكتب المصرية («٥٧٠» آداب اللغة العربية) فوجدتها لا تشتمل على قصيدة «ياعين جودى بالدموع الغزار» التى منها بيت «العبرات الحرار» والظاهر أن نسخة دار الكتب من هذا الشرح هى أصل نسخة الأستاذ المغربى وأن قصيدة «العبرات الحرار» ليست فى رواية الشرح

ورجعت إلى نسخة الشنقيطى من الديوان («٤٠ ش» آدب اللغة العربية) وهى — بحق — نسخة نفيسة مكتوبة بقلم العلامة التركزى بالخط المغربى الدقيق مع ضبط أكثر قوافيها والكلمات الغريبة منها بالقلم مع تقييدات على الحاشية لأكثر الأبيات فوجدت البيت هكذا:

من كان يوماً باكياً سيداً   فليبكه بالعَبَرَاتِ الحِرار [1]

بضبط الحاء من الحرار مكسورة مما يقطع بأن الرواية «الحرار» لا «الجوار» ونسخة الديوان هذه كتبها الشنقيطى فى مكة سنة ١٢٨٨ وفى دار الكتب المصرية نسخة ثانية من ديوان الخنساء («٥٣٦» آداب اللغة العربية) كتبت سنة ١٢٨٩ هـ بمكة أيضاً بقلم أحمد بن محمد الخضراوى بخط عادى واضح ورد فيها عجز البيت «العبرات الحِرار» بكسر الحاء أيضاً. ويغلب على الظن أن نسخة الخضراوى منقولة عن نسخة الشنقيطى السابقة وإن لم يصرح ناسخها بذلك فانه اقتصر على القول بأنه كتب نسخته من الديوان عن نسخة بالخط المغربى الردىء الذى يصعب على المشارقة قراءته

والذى يؤيد هذا الظن أن الشنقيطى كتب نسخته بمكة سنة ١٢٨٨ هـ والخضراوى كتب بعده بسنة بمكة أيضاً وأن نسخة الخضراوى تشتمل على جميع التقييدات التى على نسخة الشنقيطى بنصها كما يلاحظ الاتفاق التام بين النسختين فى ضبط بعض الكلمات فما كان مضبوطاً من هذه فلابد وأن يكون مضبوطاً فى تلك بنفس الشكل

وأظن أن ما تقدم كاف فى الاستيثاق من صحة رواية «العبرات الحرار» وأستاذنا المغربى عليم بأن عدم ذكر الحرار جمعاً لحارة فى المعاجم التى بين أيدينا لا يدل على عدم وروده

برهان الدين محمد الداغستانى

(١) فى الوجه الثانى من الورقة ٤٣ من الديوان

فى ذروة جبل إيدا، وتم رأيهم على أن يذهب هرمز فيأتى بينات دانوس، الأزوج لنسيوس، ثم يذهب بهن إلى الدفل ... الى هيدز ... إلى أعماق الجحيم ... حيث يكلفن ملء جرار مثقبة من نهر شيرون، لا تمسك المهل ... إلا كما تمسك الماء الغرابيل ... فاذا جد بهن السير، ونال منهن النصب، وجلسن على عدوة النهر يستجمعن ... أمطرتهن السماء ناراً ... فهرولن إلى النهر ليأخذن فى ملء الجرار ... ولن تمتلىء الجرار ولو صب فيها أشيرون كله ...

دريني خشبة

م الوسيط

تأليف الهيئة الرسمية لوضعه

وقع حضرة صاحب السعادة محمد علي علوبه باشا وزير المعارف مومية قراراً وزارياً بتأليف الهيئة التي يعهد إليها بوضع معجم اللغة العربية، وهي تتألف من لجنتين تمثل إحداهما وزارة المعارف ثانية المجمع الملكي للغة العربية

وهذا نص القرار :

بعد الاطلاع على القرار الذي أصدره المجمع الملكي للغة عربية بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٦ وبناء على الاتفاق الذي تم م معالي رئيس المجمع على اختيار لجنتين تمثل إحداهما وزارة لمعارف وتكون الأخرى ممن ندبهم المجمع لتعمل اللجنتان معاً إلى وضع (المعجم الوسيط) في اللغة العربية

قرر : —

المادة الأولى : تؤلف الهيئة التي يعهد إليها بوضع معجم في اللغة العربية يسمى (المعجم الوسيط) على الوجه الآتي :

أولاً — أعضاء اختارتهم وزارة المعارف العمومية :

الدكتور طه حسين بك — الأستاذ بكلية الآداب

الأستاذ خليل مطران

الدكتور أحمد عيسى بك

الدكتور محمد والي — الأستاذ بكلية العلوم

ثانياً — أعضاء ندبهم المجمع الملكي للغة العربية

أحمد العوامري بك

الأستاذ أحمد علي الاسكندري

علي الجارم بك

المادة الثانية — يراعى في وضع هذا المعجم ما يأتي : —

١ — أن يكون ترتيبه على خير نمط بحيث لا يقل نظامه عن أحدث المعجمات الأجنبية وبحيث تسهل فيه المراجعة على الطلاب الذين لم يعتادوا المراجعة في المعجمات القديمة . ويتبع في ترتيب مواده طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة

٢ — وأن يتبع في شرح ألفاظه أسلوب واضح جلي يلائم العقلية الحديثة ويؤدي إلى تصوير المعنى على أدق وضع وأسهله

٣ — وأن تحقق فيه أسماء النباتات والحيوانات وغيرها بقدر الامكان مع الاستعانة بالخبراء في هذه العلوم عند ما تدعو الحاجة

٤ — وأن تصور فيه الأشياء أو أجزاؤها مما يحتاج شرحه إلى تصوير ولا يكفي الوصف البياني في إيضاح حقيقته

٥ — وأن يؤتى فيه بأمثلة عربية من أفصح الكلام وأبلغه من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والتراكيب العربية البليغة والشعر العربي . وذلك عند كل مناسبة لتوضيح استعمال اللفظ مع الاشارة بقدر الامكان إلى عصور ما استشهد به

٦ — وأن يفصل فيه بقدر الامكان بين المعاني الحقيقية والمجازية في المادة مع تقديم الحقيقة على المجاز

٧ — وأن يشار فيه أحياناً إلى التقلبات التاريخية التي انتابت بعض الكلمات فغيرت من معانيها بتغيير العصور

٨ — وأن يختار من الكلمات التي أقرها المجمع في الشؤون العامة والعلمية ما يتفق أعضاء الهيئة على ملاءمته لما يتسع له هذا المعجم

٩ — وأن تكون مواد المعجم من الألفاظ العربية الصحيحة أو مما عربته العرب

١٠ — وأن يشتمل على ملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن مع مراعاة ما أقره المجمع في هذا الشأن

١١ — وأن يشتمل على اصطلاحات العلوم والفنون والآداب عند العرب

١٢ — وأن يترك فيه الغريب المهجور إذا أغنى عنه مرادفه الصحيح

١٣ — وأن يضبط ضبطاً دقيقاً لا محل فيه للبس

المادة الثالثة — تبدأ هذه الهيئة عملها اعتباراً من أول مايو سنة ١٩٣٦ على أن تتمه في ثلاث سنوات على الأكثر ويمنح أعضاؤها مكافأة نظير قيامهم بهذه المهمة

ترجمة معاني القرآن

قرر مجلس الوزراء بالموافقة على ترجمة معاني القرآن الكريم :

ونص قراره :

بعد الاطلاع على كتاب فضيلة شيخ الأزهر وكتاب سعادة وزير المعارف العمومية بشأن ترجمة معاني القرآن الكريم

ومع تقدير مجلس الوزراء لمشقة هذا العمل وصعوبته ومنعاً لاضرار التراجم المنتشرة الآن رأى بجلسته المنعقدة في ١٦ ابريل

سنة ١٩٣٦ الموافقة على ترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة رسمية تقوم بها مشيخة الجامع الأزهر بمساعدة وزارة المعارف العمومية وذلك وفقاً لفتوى جماعة كبار العلماء وأساتذة كلية الشريعة

الشعر القبطى القديم

ألقى الدكتور هرمن يونكر مدير معهد الآثار بالجامعة المصرية ومدير المعهد الألمانى للآثار المصرية محاضرة فى « الشعر القبطى القديم » هذه خلاصتها :

يرجع الشعر القبطى الى القرن التاسع بعد الميلاد ، وهو شعر شعبى وطنى لا أثر له فى الكتب الثمينة والدواوين الأدبية ، بل يوجد فى كراسات متفرقة من الورق ، وهو يمثل روح الشعب وعقليته ، وتظهر فيه جلياً الروابط التى تربطه بشعر العصور الفرعونية كما تظهر علاقته بألحان الشعب فى العصر الحاضر

ويؤلف الشعر القبطى من قصص للعامة مثل أغانى الفلاحين وهم يؤدون أعمالهم ، وأناشيد تتلى فى أيام الأعياد . وهو على مثال الشعر الفرعونى لم يتقيد بقاعدة القوافى ؛ وأبياته لم تراع فيها قواعد الوزن المتبعة فى الشعر العربى أو اللاتينى فهو غناء نسق روعى فى كل بيت منه انسجام خاص فى الكلمات والتوقيع يوصل إلى نغمة موسيقية ، وهذه الطريقة نفسها المتبعة فى شعر مصر القديمة

وكانت الأشعار القبطية تلقى بطريقة موسيقية على ألحان متعددة لكل لحن اسم ، وكان هذا الأسم مكوناً من الكلمات الافتتاحية لأغنية مشهورة (مثلا : الباب ، الحديقة ، سمعت السر المقدس ... انظر إلى فوق ...) كما تلقى اليوم أغانى العامة على وزن موال كذا وكذا

وكانت الأغانى فى أغلب الأحوال مؤلفة من دورين فى كل دور أربعة أبيات ، وكانت بين الدورين رابطة معنوية ، فكان الدور الثانى مثلاً يحوى ردا على سؤال ورد فى الدور الأول ، وتوجد أيضاً قصائد تمثيلية تشتمل على مقدمة ثم نشيد للمغنى ، وبعد ذلك دور غنائى غير موزون ، يليه رد الجمهور ، وكانت تكرر هذه السلسلة مرة أو أكثر على حسب موضوع القصيدة

وفى أحوال أخرى توجد قصائد تشبه كل الشبه الروايات التمثيلية الغنائية فيلقى كل ممثل فى دوره دورا غنائياً كما نرى فى رواية « اركليتيس ووالدته »

معاهدة ثقافية

عقدت أخيراً بين فرنسا والنمسا معاهدة ثقافية لتقوية الروابط والصلات الثقافية والفنية والاجتماعية بين الأمتين ، خلاصتها أن تتبادل الحكومتان الآثار العلمية والفنية ، وأن تتبادلا إقامة المعارض الفنية وتنظيم الحفلات الموسيقية والتمثيلية كل فى بلد الآخر ؛ وقد نص أيضاً على أن المعهد الفرنسى الفنى الذى أنشىء منذ حين فى مدينة فينا يجب توسعته وتنظيمه ، بينما تنشىء النمسا معهداً نمسوياً مماثلاً فى باريس ؛ كذلك نص على أن تتبادل الحكومتان انتداب العلماء والأساتذة كل فى النواحى التى تحتاج فيها إلى معاونة علمية من الطرف الآخر ، وأن تنظم كلتاهما كل فى بلد الآخر رحلات علمية ورياضية لطلبة المدارس الثانوية ، هذا إلى تفاصيل أخرى ترمى كلها إلى تقوية الصلات العلمية والاجتماعية بين البلدين

هذا ومن المعروف أن النمسا قد عقدت مثل هذه المعاهدة الثقافية من قبل مع المجر وإيطاليا ؛ وهى تبغى من وراء ذلك الى كسب المعاونة الخارجية للاحتفاظ بمستوى ثقافتها ؛ وهى تبذل فى ذلك السبيل جهوداً عظيمة داخلية وخارجية

وفاة علامة كبير

من أنباء السويد أن الطبيب والعلامة المجرى الشهير الدكتور روبرت بارنى قد توفى فى أوبسالا فى الستين من عمره ؛ وكان مولده فى المجر سنة ١٨٧٥ ؛ ودرس الطب فى فينا ، ثم زاول مهنته فيها أعواماً طويلة ، واشتهر بالأخص بالتخصص فى أمراض الأذن وجراحتها ، وفى أثناء الحرب الكبرى انتظم فى سلك الجيش ، وحارب فى الميدان الشرقى ، ووقع فى أسر الروس ، وأمضى فى الأسر حيناً فى روسيا . ولكن حكومة السويد تدخلت فى أمره تقديراً منها لكفاياته العلمية ، وسعت لدى روسيا حتى أطلق سراحه ، وانتدبته الحكومة السويدية للتدريس فى جامعة أوبسالا ، وفى أثناء الحرب أيضاً منح الدكتور بارنى جائزة نوبل للطب ، وأضحى علم الأعلام فى طب الأذن ؛ وله فى هذا الميدان بحوث علمية شهيرة ؛ وقد أنفق حياته منذ إطلاقه من الأسر كلها فى السويد حتى توفى فيها

الكتب

نابليون : المائة يوم

للسنيور موسوليني والسنيور فورزانو

نقلها إلى العربية الأديب يوسف تادرس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ما زال عظماء الرجال موضع تفكير الانسانية وبحثها ، ومهما كتب الكتاب فى عظيم لم يستوعبوا أسراره بل تبقى فى نواح منه مواضع فسيحة للأجيال المقبلة وبحثها ، ولقد كان نابليون أعظم من ظهر فى الانسانية فى تلك القرون الأخيرة من رجال الحرب والسياسة ، ولئن نفس عليه الأدباء عظمته وأبوا عليه الزعامة فيهم ، فلن يستطيعوا أن ينكروا أنه قد كان أديباً ، وأنه كان شاعراً ، لا بأنه كتب الكتب وألف القصائد ، بل لأنه كان له فن الكاتب وخيال الشاعر . ولقد حاول أن يجول فى ميادين الأدب الخالص كما حاول من قبله قيصر ، فلم تترك له مشاغل المعمعة ومشاكل السياسة فراغاً لذلك

وقلما نجد لغة من اللغات الحية ليس فيها ذكر لذلك الرجل العظيم ، ولم تكن القصة مقصرة فى ذلك عن التاريخ ، فان كتاب القصص وجدوا فى حياته مواطن كثيرة يخرجون منها إلى خيال رائع أو تحليل بديع . فقد كان نابليون على شهرته وتطلع العيون اليه محاطاً بجو من الغموض يجعل فى حياته مسارح لقناص الرواية وصيادي الحكاية

وقد اختلفت نظرات الناس فى نابليون اختلافاً لا ينم عن شىء غيمته عن عظمته واتساع شخصيته . ولكن لم يكن فى مقدور البشرية أن يدرك شخص كنه شخص آخر . فما زال تقدير الناس لنابليون تقديراً يقرب بهم الى الحقيقة ولا يلمسها . فكل من كتب فيه قارب ولم يصب ، ودنا ولم يصل . غير أن بعض الواصفين أقدر من بعض على قصد المرمى وبلوغ المدى ، وذلك أن يكون الواصف فيه شىء من طباع الرجل وخلقه وآرائه . فاذا تحقق ذلك كان الوصف أدنى ما يكون من الحقيقة

وقد كتب هذه القصة التى بين يدينا الآن رجل عظيم تدنيه من نابليون علاقات كثيرة ومشابهات متعددة وذلك هو موسوليني ، فكلاهما إيطالى ، وكلاهما رجل حرب ، وكلاهما رجل سياسة ، وكلاهما فيه هذه المغناطيسية العجيبة التى تخلق الأصدقاء المخلصين والأعداء المتحمسين ، وكلاهما انحنت له هامات كبيرة وعقول حصيفة . فاذا كتب موسوليني قصة عن نابليون ، كان أليق الناس أن يصف نبضات قلبه وخلجات صدره . وها هى هذه القصة تدل على ذلك أكبر الدلالة

يظهر نابليون فى هذه القصة عقب أسره الأول وارساله الى جزيرة « البا » ويظهر فيها فى فترة المائة يوم إلى أسره الأخير وإرساله إلى « سنت هيلانة » ولعمرى لهى أيام القصة من حياة نابليون . هى الأيام التى تتجلى فيها مأساة بشرية رائعة :

دسائس ثائرة حوله ، ومجهودات جبارة تحاول صد تيار أتى فتصرع دونه ، وأصدقاء يفر بعضهم ويثبت أقلهم ، ثم أنانية لا تنظر إلا إلى النفس ونفعها أو خلاصها ، والرجل العظيم فى وسط ذلك كله تنعكس فيه كل تلك العيوب وتشع منه كل تلك البواعث

صور موسوليني نظام الحكم وأسسه ، ونطق عن لسان نابليون فى تصوير عيوب الديمقراطية واحتقارها فقال :

نابليون — « . . . . . عند ما أبرح باريس إلى الميدان ، لا أريد أن يهاجمني البروسيون والانجليز فى وجهى بينما يطعنني مجلس النواب الفرنسي من خلف »

فوشيه — « مولاى إن المجلس هو الأمة »

نابليون — « (ترتفع نبرات صوته) لا ... ليس هو الأمة (يبحث فى مكتبه كالمحموم) إن صانع البنادق فى مارسيليا الذى وهب لنا مائة بندقية ، وصانع السروج الفقير فى بولون سيرمار الذى قدم ثمانين سرجاً للفرسان ، وعمال فيسول

وفلاحى أرجون الذين حفروا الخنادق وأبوا أن يتناولوا أجرا ، وجنود الفرقة التاسعة والسبعين الذين رفضوا الرشوة لأنهم عقدوا العزم على أن يتبعونى ... وكل امرأة كنت أنتظر منها رسالة استجداء فاذا بى أتسلم بدلاً من ذلك رسالة تقدم فيها ما ادخرته من مال . (يريهم لفة مربوطة بشريط وسام جوقة الشرف) هذه هى الأمة يا مسيو فوشيه ، وليس الخمسمائة من المحامين الذين يستطيع أربعة من رجال حرسى أن يفرقوهم بمؤخرة بنادقهم »

وصور موسولينى شخص نابليون فلم يترك دقيقة لم يصورها : رجل ينام فى أى وقت شاء ، ويدرك فى دقيقة ما يفوت الافهام فى ساعات . فاذا عزم فانما عزيمة البرق ، وذلك حتى بعد أن فل حده وترهل جسده وضعفت عزيمته بعض الضعف . ثم صوره والداً تغلبه العاطفة وزوجاً يذكر حبه الأول ويحنق على زوجة خائنة حنقاً مكتوماً وإنساناً يتعذب ولكنه يحتمل العذاب والاحقاد احتمال الجبار

ثم صور موسولينى الموقعة الأخيرة ، فكان فى وصفه القائد الواقف على نشز من الأرض يرقب جنوده من منظاره ، ويحرك الفيالق عن علم ودراية ، حتى لكأننا ننظر من ثنايا وصفه ميدان « كاتربرا » و « واترلو » . ونسمع أصوات القواد والساسة فى مفاوضاتهم بعد النصر الأخير

فالقصة مثل رائع من أمثلة التأليف القصصى التاريخى ، يكاد الانسان لا يبصر فيها موضع القصص لصدقها التاريخى ، ويكاد لا يلمح التاريخ لصدق تصويرها القصصى

وقد أحسن حضرة الأديب يوسف أفندى تادرس الناقد المسرحى لجريدة السياسة الغراء ، فى إخراج هذه القصة الى اللغة العربية التى ما كان لها أن تفقد قصة موضوعها نابليون ومؤلفها موسولينى . وقد نقلها عن الترجمة الانجليزية للشاعر الانجليزى المعروف « جون درنكووتر »

وقد قرأت التعريب كما قرأت الترجمة الانجليزية التى عربها المعرب ، فاذا بى حيال قصة عربية سلسة حلوة الأسلوب سهلة اللفظ ، قد أبرز المعرب روحها إبرازاً لم يدع فيها موضعا لغموض مع الصحة والدقة

فعلينا أن نشكر لحضرة المعرب الأديب مجهوده العظيم الذى أضاف به كنزاً جديداً إلى اللغة العربية المجيدة

محمد فريد أبو حديد

مكتبة القراءة والثقافة الادبية

بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعى

مدير ادارة المطبوعات

لا حاجة بنا أن نقدم إلى القراء الدكتور أحمد فريد رفاعى فهو ذو الشهرة الطائرة والصوت البعيد فى عالم الأدب ، وفى طليعة الجمهرة المستنيرة المثقفة فى مصر ، يجمع إلى نشاطه الوثاب عزيمة لا تفتر وهمة لا تكل ، وهو جد معنى بأن يظهر أبناء العربية على طريف البحوث وشائق التآليف فى مختلف مناحى الثقافة العربية ، فقد أصدر منذ سنوات قليلة مؤلفه الكبير « عصر المأمون » ونال ما يستحقه من الرضا والاقبال ، كما أصدر سلسلة « الشخصيات البارزة » ؛ وها هو ذا الآن لا يشغله منصبه الرسمى الكبير عن أن يتحف أبناء العربية بسلسلة جديدة فى أربعة أجزاء تشمل دراسة موضوعات مختلفة فى الثقافة العربية أصدرتها مطبعة المعارف فى حجم لطيف وهى « المقدمة ، والتعقيب ، والتذييل ، والتعليق » وهى تشمل بحوثاً مستفيضة فى نواح مختلفة تلذ حقاً وتنفع حقاً ، فمن حديث عن حاجة العربية الى التجديد ، الى كلام عن فن القراءة ، الى درس البرامج الدراسية العربية والأفرنجية ، الى مطلب عن القراءة ، الى حديث عن موقف المؤلف بين العربية والانكليزية ، الى فذلكات عن ابن الجوزى والبغدادى وياقوت الحموى والفارابى وابن سينا وقيس بن رفاعة والزجاج وابن مسكويه وعمر بن الخطاب وأبى موسى الأشعرى وأبى عبيدة الجراح ومعاذ بن جبل وأبى حيان والأشتر النخعى والبصرى والمهدى وطاهر بن الحسين وابن طيفور والصابى وابن زيدون والأسكافى وابن سعيد المغربى وابن صخر الهذلى ، الى غير ذلك من الأحاديث الشيقة والدراسات الممتعة

وقد صدره المؤلف الفاضل بمقدمة بليغة ، شرح فيها غرضه من تأليفه وهو حرصه على توجيه الشباب توجيهاً نافعاً إلى الطريق الأقوم . فعسى أن يكون اقبال القراء عليه مكافئاً لجهده ومحققاً لقصده

(س)